وجوه مرورق

جاسم العرفه

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

نولد جميعاً ونحن نحمل نصف الحكاية فقط، والنصف الآخر يُخبَأ
عنا كجريمةٍ لم تُكتشف بعد

الحقيقة ليست ما نعرفه، بل ما نخشاه أن نكتشفه

الذاكرة خائنة، والماضي لا يُدفن؛ هو فقط ينتظر لحظة ضعفٍ
ليظهر من جديد . . . .

وبعض الأسرار، لا تُروى إلا حين تصبح أنت الشخص الخطأ في قصةٍ
لم تخترها . . . .

جاسم العرفة

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

«لم أستطع إخبارك.. كنت خائفة.. سيقتلني الندم يوماً ما»

ART_OF_BOOK

فاح الألم بين ثنايا الأوراق الباهتة المتصاعد من بين طيّات المذكرات العتيقة، كشهقةٍ أخيرةٍ لأمٍّ رحلت تاركةً أسرارَها تتعفن في صمت، حينما انهمكت منى في تقليب الصفحات المُصفرّة بأصابع مرتعشةٍ، ونور المصباحِ الخافت يخترق حروف الخط المُتآكل، كأنما يلقي بظله على جريمةٍ لم تُكشفْ بعد.

كانت كلماتها تقطرُ عُصارة الذنب من بين السطور، كأن يد الأم الميتة ما زالت تحكُّ جُرحاً نزف عشرين عاماً لتَظهر حقيقة الأخ التوءم مثل شبحٍ انفلت من مرآةِ طفولتِها، ذاب في ضباب الزمن قبل أن تلمسه، وسُرق من حاضنة المستشفى بدمٍ باردٍ، كأنما اختطفت نصفُ روحِها معه.

في الغرفةِ الضيّقة، حيث تتدلّى صور الطفولةِ على الجدرانِ كشواهد على كذبةٍ طويلةٍ، انحنت منى على المذكّراتِ كمن تغرق في بئر. دوار المسكنات الذي اعتادته تلاشى أمام دوار الحقيقة التي أسقطتِ الكذبة، واحتبست أنفاسها فوق سطرٍ واحدٍ:

«بعد أشهرٍ من الحادثة، أمضت منى ليلتها الباردة ولا تزال تحتضن تلك المذكرات، وتعتصر غلافها كأنها تحاول عبثاً قتل أمها

مرتين، دون أن تفكر في أن تواجه والدها الغائب الحاضر الذي يسدل رأسه إلى الأمام داخل كرسيه المتحرك في غرفته، بعد أن أدى الشلل الدماغي إلى تعطيل جزءٍ لا بأس به من هويته.

استيقظت متأخرةً وسط هذا الفراغ الصباحي المقيت حيث لا مجال لأن يشحذ الشخص طاقته بأي أملٍ أخرق، مع بعض الآلام العضلية في كامل ظهرها وأطراف جسدها ربما كان سببه فراشها الصلب القديم، دون أن تستشعر هدير هاتفها المحمول الذي يصدح بشكلٍ لا يُحتمل، لقد تناولت جرعة أكبر من المسكنات الليلة الفائتة، ولا عجب أنها لم تستيقظ على صوت الاتصالات المتكررة التي توقفت أخيراً لدقائق، لتعيد للصباح شكله البارد الشاحب قبل أن يبدأ أحدهم بضرب الباب الخارجي للمنزل بعنفٍ شديد أخرج على أثره أحد الجيران المتطفلين، وأيقظ أخيراً منى.

فتحت الباب واستدارت للداخل وهي تعلم أن الواقف في الخارج هو زميلها زياد الذي اعتاد أن يقلها يوميّاً من المنزل.

- هل أنتِ بخير؟

قال وهو يشاهد حالتها التي يرثى لها، لكنها لم تجبه واستمرت

في خطواتها المتثاقلة إلى الغرفة حيث غابت قليلاً لترتدي ملابسها الرسمية، وخرجت حاملةً حقيبتها ثم غادرت المنزل تاركةً خلفها والدها، وهو يفتح فمه للهواء بعد أن خرج مرتعداً من غرفته ليستطلع صاحب تلك القبضة التي كادت أن تحطم باب المنزل.

- سيكون يوماً شاقّاً بالتأكيد.

كانت كلماته إشارةً إلى حالتها المزاجية المتقلبة، لذا عاد إلى مقعده وأسند رأسه المحشو باللامبالاة إلى الخلف وأدار السيارة، ثم انطلق بسرعة دون أن يتوقف لإحضار قهوتها المعتادة من أحد الأكشاك القريبة على طريقهما بعد أن أشارت له بالمتابعة.

في مبنى الشرطةِ المُتهالك، حيث تتدفّق أصوات صفارات الإنذار مع أنين المعتقلين خلف القضبان البيضاء، وقفت منى أمام رجلٍ يتهرب من نظراتها بعد أن انصاعت مجبرةً لكلمات قائدها، حيث قام بتوكيلها للتحقيق معه عن إحدى الجرائم الفظيعة.

رائحة الكحول تفوح من أنفاسه بينما يحاول ابتلاع كلماته الضائعة، لكن عينيها المُحمَرَّتين كانتا تجلدانه بصمت يرهبه.

- من كان معكَ ليلة اختفاء الطفلة؟

همستْ بغضب ممسكةً بقلمٍ أحمر كانت تخط به دوائر ملتفةً حول اسمٍ ما في الملف، وتحت نظرات زياد غدا مخاض جنونها أشبه

بانفجارٍ بطيءٍ، كأنما تحقق في جريمة اختطافٍ أخرى وقعت قبل عقود.

أنهت منى طرح أسئلتها ومعاينة الصور المثيرة للاشمئزاز بعد أن حافظت على هدوئها بشكلٍ لافتٍ رغم مراوغة المشتبه به الذي أقر ببعض المشاهدات ثم ارتبك وتراجع عنها، لذا كان زميلها متأهباً طوال الوقت للإمساك بها، يخشى من ثورانها ومحاولة اعتدائها على هذا المخمور الذي تُرك بعدها داخل غرفة التحقيق، بينما غادر المحققان إلى المشرحة لمعاينة الجثة قبل الإفتاء بأمره.

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

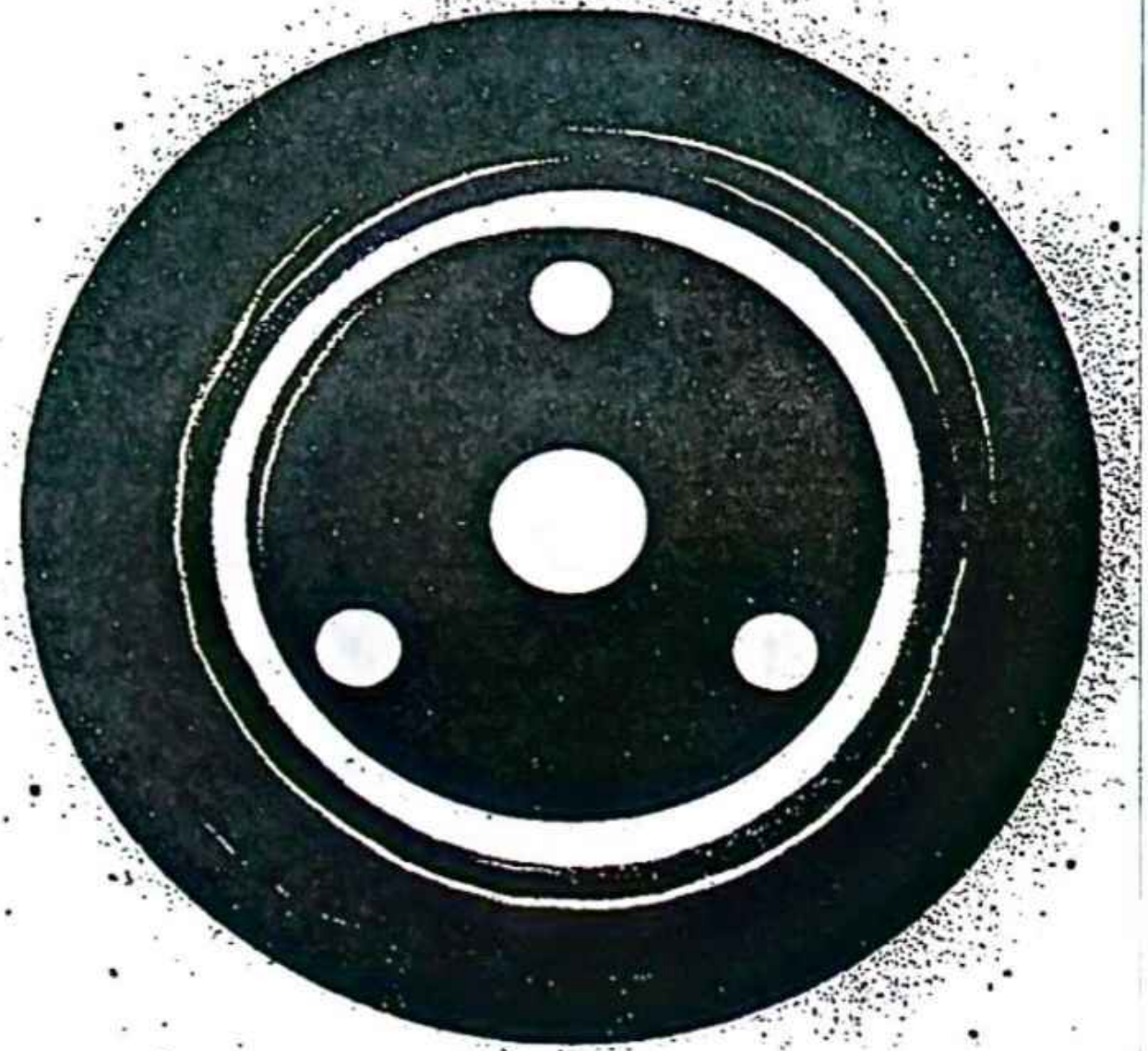

ART_OF_BOOK

في الخارج، وبعد حوالي دقائق من القيادة صوب الشرق، وصل المحققان وعبرا الرواق الضيق المعتم قليلاً بعد أن ألقى زياد التحية على حراس المدخل، إلى أن وصلا أخيراً إلى حيث تستلقي الجثث داخل حجراتٍ باردةٍ تحافظ على ما تبقى من كينونتها قبل أن يلتهمها الدود.

انحنت منى فوق الجثة الصغيرة الممزقة الممددة على السرير الحديدي في منتصف الغرفة، بينما كان الضوء الأبيض المسلط فوقها ينزلق ليُظهر لحمها المقطوع والمشوّه، وقد اختلطت رائحة الدم الثقيلة التي تخنق الهواء بأنفاس منى المتقطعة وهي تتبع آثار الجروح المُتشعبة على جسد الطفلة، حيث الأفخاذ مُشرّحةٌ بعنايةٍ وبطريقة تثير الغثيان، البطن مُستأصَلٌ كفاكهةٍ ناضجة، والخدود نُزعت عن عظمها كأقنعةٍ من الشمع.

«ليست جريمة مخمور عادية..»

قالت لنفسها، بينما راحت أصابعها ترتجف فوق بصمةٍ غريبةٍ مطبوعةٍ على ذراع الضحية، أشبه بعلامةٍ نُقشت بحبرٍ أسود شَكَّلت دائرة معقدة تحيط بثلاث نقاطٍ كعيون شيطان، مع خيطانٍ رَتَقت طيات لحمها المقطع بعد أن أنهت التمثيل بالجثة.

لم تحتمل البقاء طويلاً، فرأسها مشبع بالمسكنات وعليها الخروج لتنشق الهواء بعد أن جالت في ذهنها صور بعض الجرائم السابقة الأقرب لتفاصيل هذه الجريمة.

لم تكد تعبر قدمها الباب بعد أن حفظت في رأسها تفاصيل الجريمة المروعة حتى رن هاتفها المحمول.

– هل أنت واثق؟ حسناً أنا في طريقي إلى هناك، أرسل إليّ التفاصيل.

اتصل بها سميح المسؤول الأمني في المركز عن تفحص ومتابعة كاميرات المراقبة، وأعلمها بأن أحد تلك الأشرطة التقطت في الزاوية البعيدة لحظةً ضبابية، كانت عبارةً عن شخص متوسط الطول يجر جسد الطفلة ككيس قمامة، وقد بدا أنه ربط قبضته اليسرى بقطعة قماش سوداء ثم أزالها ووضعها داخل جيبه ما أن انتهى من مهمته، بيد أن الخبر المؤسف أن وجه القاتل لم يكن واضحاً في الظلام.

– «المتهم كاذب.. لكنه ليس الوحيد».

احتكت جفونها المُثقلة بآثار الحبوب وهي تحاول استيعاب أفكارها المتشعبة، ثم تذكرت كيف ارتعشت يد المخمور حين رأى صورة الجثة، وكيف صرخ:

– أنا شاهدت الطفلة حية.. لكنني لا أعلم من اختطفها فقد كان يرتدي قناعاً قماشيّاً!

أسرع زياد بتسجيل تقريره ثم تبعها للخارج، حيث طلبت منه الذهاب إلى موقع الجريمة، وانطلق فعلاً داخل الطريق الرئيس قبل أن يلتف داخل الأزقة الضيقة القديمة مع الضباب الثقيل وصولاً إلى شارع الموتى الذي تكثر به الجرائم.

الجرذان الغاضبة تتقافز بشكلٍ هستيري وتتصارع مع القطط الهزيلة على حفنة خبزٍ وقعت بالخطأ من يد أحد المشردين، ولم يستطع إنقاذها، والنوافذ المتسخة تخفي تفاصيل الفقر المدقع الذي يعانيه صغار هذا الحي، ووجود سيارة الشرطة في حد ذاته هو مغامرة محفوفةٌ بالخطر.

وصل المحققان إلى الموقع أسفل الشارع المقفر، حيث أسرعت منى بعد أن لاحظت وجود رجلٍ واقفٍ في محيط مكان الجريمة، ظهرُه منحنٍ نحو الحائط ويداه تحملان كاميرا صغيرة تلتقط بعض الصور.

- ماذا تفعل هنا؟!

صاحت بلهجةٍ حادة بينما يدها تلامس مُسدسها الخلفي. التفت الرجل ببطءٍ، كمن يُقلّب صفحات ذاكرةٍ قديمة، وظهرت تفاصيل وجهه المُتقطّع بندوبٍ غائرة.

- أنا سيف. كاتب مقالات عن الجرائم والحوادث.

قال بصوتٍ أجشَّ يُشبه حفيف أوراق غابة مهجورة، بعد أن سحب من جيب معطفه بطاقته التعريفية ليؤكد هويته. ثم تابع:

- نلتقي مرةً أخرى أيتها المحققة.

ارتجفت ذاكرتها فجأةً. عادت خمس سنوات للماضي، إلى أولى جرائم القاتل، حين أطل الوجه ذاته من بين الضحايا أثناء كتابتها لتقارير جرائم قديمة، وكان الوحيد الذي نجا من بين أنياب ذاك المجنون، لكنه اختفى فجأةً دون أن يترك أي أثر.

- كيف عثرت على هذا المكان؟

حاولت إخفاء ارتباكها بينما عيناها تمعنان النظر في جيبه المتدلي، حيث لاحظت زاوية دفتر ملاحظاتٍ أسود.

- القاتلون يتركون دائماً توقيعاً.

قال وهو يمرّر إبهام يده العريضة فوق ندبة جرحٍ سابق على رقبته، وأكمل:

- إنني مثلكِ تماماً. تتبعين الأسرار التي تُشبهك.

- ليس لدي أي أسرار!

انتهى اللقاء غريباً ومشحوناً بعض الشيء بعد أن أمرته بالابتعاد عن موقع الحادثة حرصاً على عدم طمس أي دليلٍ متعلق بالجريمة،

ART_OF_BOOK

وبالفعل التف عائداً وغار داخل الضباب دون أن يحاول نقاش معها، خاصةً أنها اتجهت لتفحص المكان رفقة زميلها وبدأت تنكش بين الطين الرطب والأوساخ كدجاجةٍ جائعة تجرب إخماد الاضطراب الذي اعتراها بعد كلمات سيف الغامضة.

جلست المحققة في مكتبها الخاص بعد عودتها بحوالي نصف ساعة، وقد علقت على الجدار الجانبي صوراً قديمةً للضحايا كأشباح تُراقب وتنتظر معرفة غريمها، مثل أغلب المحققين الذين يجتهدون لجعل قضاياهم مخدراً لا يمكن العيش بدونه، ثم فتحت ملفّاً قديماً مُغبرّاً. حيث وجدت بعد تفتيشٍ قصيرٍ داخل الأوراق صورة سيف تطلُّ منها، له العينان الضيّقتان أنفسهما اللتان تحملان بريقاً سوداويّاً، اليد اليُسرى نفسها التي تحك ندبته كطقسٍ مجنون.

«هل كان الناجي الوحيد فعلاً؟»

تساءلت بصوتٍ عالٍ بينما تُقلّب تقاريرَ الطب الشرعي، وهي تشاهد الجثث القديمة التي تحمل العلامة السوداء نفسها على ذراع الطفلة، نفسه أسلوب الاستئصال الفني للأعضاء، لكن ما أثار قشعريرتها حقّاً كان تقريراً مكتوباً بخطٍّ غريبٍ يقول:

«الضحايا يُختطفون دائماً في أيام ذكرياتٍ خاصةٍ بالقاتل. ربما مولدٍ أو فاجعة».

ART_OF_BOOK

عندما عادت منى إلى المنزل متأخرة كانت ظلال الغروب تداعب نوافذ الشقة العتيقة كأشباحٍ تتنصت على أسرارها، فاتها اليوم لقاء الممرضة التي تم تعيينها لمساعدة والدها، حيث تركت ملاحظةً على الثلاجة تفضي بأن حالته جيدة وقد تناول طعامه وأدويته في وقتها المحدد، ثم أضافت سطراً في الأسفل تطلب فيه دفعةً مقدمة على الحساب.

أنهت قراءة الملاحظات ثم ملأت كأساً من الماء، وعادت إلى غرفة والدها الذي وجدته جالساً في كرسيه المتحرك وعيناه الزجاجيتان تحدقان في صورةٍ عتيقةٍ على الجدار لطفلتين ملتفتين داخل حضن امرأة، وانحنت بوجهها الشاحب نحوه وهي تحاول قراءة ما يجول في خاطره بعد أن فقد القدرة على الكلام، وهو يتابع الطفلتين الملتصقتين بالمرأة كفراشاتٍ محنطةٍ، حيث نجت أطراف أصابعه التي استطاع حك جلد مسند كرسيه الأسود بها، وما زالت حتى الآن ترتعش وهي تجرب يائسةً خطَّ ما يشعر به، بينما لمحت ظل دمعةٍ خجِلةٍ تنزلق خلسةً من محجر عينه اليمنى كأنه يحاول مجدداً تبرير ما حصل.

- لم ظننت أن الصمت سيدفن الألم يوماً؟ أن الشلل سيكون درعك في مواجهة ما أشعر به؟ أين هو؟ أين النصف الذي جعل مني شبحاً يطارد نفسه؟!

أنهت همساتها قرب رقبته كأنها تغرز فيها سكيناً يخفف ألمه فارتجف جفناه المتهالكان كأجنحة خفاشٍ خائفٍ بينما ارتفعت ضربات قلبه وتسارعت أنفاسه يريد الفرار من الحقيقة، وكانت أصابعه المشلولة تحاول التحرك نحو الصورة كأنما يحاول شرحها أو ربما لمس وجه الطفلة الثانية التي تعبر عن شقيقها المختطف، أو حتى الوقوف والركض بعيداً خارج الغرفة.

-حتى الصورة صارت تتَّهِمُك، انظر إليها! انظر إليّ وأنا هنا وحيدةٌ وممزقة مثل جثة تلك الطفلة التي وجدتها اليوم في المشرحة. لا فرق بينكما وبين ذاك القاتل!

انتفضت عيناه المكتنزتان بالدموع وهو يسمع كلماتها الجارحة، وأراد أن يصرخ لكن لسانه الميت تحول إلى حجر غارقٍ داخل بئر عميقة. تراجعت منى خطوةً للخلف قبل أن تستدير مغادرة وهي تتحسس العذاب الذي يتشربه جسده العليل، حتى خُيل لها أنها تشم رائحةً أقرب لتلك التي التصقت بملابسها في المشرحة اليوم، لذا غادرت غرفته ولا تزال يدها تلتقط كأس الماء بغضب قبل أن تأخذ منه رشفةً حين عادت للمطبخ ثم استدارت مجدداً نحو غرفتها، والتقطت المذكرات عن الطاولة واحتضنتها وهي تتحسس جرحاً غريباً على خدشٍ صغيرٍ على إحدى أصابع يدها لا تعلم

سببه، ثم أغلقت المصباح قربها تاركةً الظلام يلتهم الغرفة ويحجب رؤية الدمعة التي تكورت من جديد داخل محجرها.

باغتت منبّه هاتفها هذا اليوم حين استيقظت قبله مفعمةً بنشاطٍ غريب وهي تراجع في غرفتها تقريراً كانت قد جلبته معها، وتقرأ الجملة المبهمة في آخر الصفحة مع ذاك الخط الغريب الذي تجهله، لقد عبث أحدهم بتقريرها لكنها لا تستطيع الإفصاح عن الأمر الآن، دفعها ما حصل لإغلاق التقرير والنهوض لإعداد فنجانٍ سريعٍ من القهوة.

بعد دقائق وبينما كانت تأخذ رشفتها الأولى من الفنجان، رن هاتفها المحمول ليأتي بعدها صوت زياد وهو يخرق سكون الصباح حاملاً نبأً صادماً استغرق منه السهر في قسم الشرطة حتى وقت متأخر.

- ماذا هناك؟

حاولت إخفاء توترها وهي تضع الفنجان على الطاولة لكن ارتجاف أصابعها كان جليّاً بعد أن أخبرها زياد بما اكتشفه داخل الطفلة المقتولة حين لفته وجود شيء غريب تحت تلك الجراح المقطبة، لقد جمع قطع القماش المصبوغ بالدماء وجرب توصيلها ليفاجأ بأنها تحمل رسوماتٍ أقرب لتفاصيل وجه الطفلة المقتولة،

ART_OF_BOOK

مع تاريخٍ يطابق سنة ولادتها «١٩٨٢»، حيث اكتفت بالاستماع إلى زميلها المتحمس والذي تم تعيينه منذ فترة وجيزةٍ ورغماً عنها لمساعدتها في استعادة ثقتها بعد أن انهارت حزناً على وفاة والدتها.

- أنا بانتظارك لا تتأخر.

تسارعت أنفاسها وانتفض صدرها بين الحماسة والهلع بينما تغلق الهاتف، بعد أن ساورها الشك بأن سلسلة الجرائم السابقة عادت للظهور مجدداً، وعليها الآن مواجهة مخاوفها والتغلب على هواجسها والموازنة بين السعي لإيجاد شقيقها والتفرغ للقبض على القاتل الذي باتت متيقنة أنه يعلم هويتها.

وصل زميلها بعد دقائق من الانتظار خارج المنزل دون أن تستقصي غرفة والدها أثناء مغادرتها وتطمئن عليه، وانطلق المحققان صوب المركز حيث تبادلا المعلومات عن مجريات التحقيق دون أن تخبره بحقيقة ما تملكه من معلومات أو أن تتعمق بالسؤال عن تلك القصاصات، فالقاتل يعلم تفاصيل مريبةً بالأخص عنها كما أنه امتلك منذ جرائمه الأولى المعقدة معرفةً واضحةً بسير التحقيقات، رغم جهودها السابقة في مراقبة جميع زملائها إلا أنها لم تجد أي دليلٍ يثبت تورط أحدهم، لذا كان من الأفضل لها أن تبقي تلك الأسرار لها ريثما تثق قليلاً بزميلها الجديد.

ART_OF_BOOK

منذ اللحظة الأولى لوصولهما اتجهت منى صوب المخمور المتهم مجدداً، وفتحت الغرفة حيث لا تزال رائحة الكحول والقذارة تفوح من خلاله، وقبل أن تباشر تحقيقها معه لمحت عينيه هذه المرة اللتين تحملان بريقاً غريباً وقد تخلى عن خوفه.

- القاتل كان يحمل هذه.

فوجئت منى حين همس وهو يخرج من جيبه أداةً جراحيةً صدئة، ثم تابع حديثه:

- رأيته يرميها في الطين بعيداً عن مكان وجود الطفلة قبل أن يختفي في العتمة والضباب.

على الفور فتحت المحققة باب الغرفة ونادت بغضبٍ على أفراد الشرطة الذين أمسكوا المتهم وأحضروه للمركز، فتقدم أحد الشرطيين نحوها مسرعاً وأغلق الباب خلفه.

- من قام بتفتيشه؟

- أنا فعلت، لماذا؟

- كيف وصلت له هذه الشفرة الحادة إذاً؟

وقف مرتبكاً بوجهٍ لا يمكن تفسيره وقد تجمد الدم في وجهه وهو يشاهد الأداة التي قامت المحققة بسحبها من يد المتهم على الفور، إنه يجهل ما حصل لأنه قام بفحص شاملٍ ودقيقٍ للمتهم

كما يفعل عادةً، فلم يستطع تبرير ما رآه سوى بالإنكار ورفض يتحمل مسؤولية الأمر، وسط غليان دم المحققة التي أمرته بالذهاب وإرسال زميله الآخر الذي كان رفقته.

ما أن غادر الشرطي الغرفة وهو ينظر للمحققة بحذر، حتى بدأت تفحص الأداة الجراحية الصدئة بتمعنٍ شديد، كان السكين المُسنن يلمع ببقعٍ داكنةٍ من الصدأ الذي تشبّع بدماء قديمةٍ، وكأنه يحمل ذكريات جرائم لم تُحل، ثم تركت الغرفة رفقة زياد الذي سار كظلها وهي تحمل الأداة إلى أن دخلت مكتبها وجلست خلف طاولتها المليئة بالأوراق والملفات، وبدأت تقلّب الأداة بعناية لكنها توقفت عندما لاحظت نقشاً دقيقاً على طرفها العلوي، كان رقماً تسلسليّاً مكتوباً بحروفٍ لاتينيةٍ باهتةٍ نقشت حديثاً مع عنوان رفيع.

توجد كتابة كما يبدو!

- «مستشفى النور.. ١٩٨٢».

همست شاردة الذهن تتجاهل استفسار زميلها وتعيد تجميع أفكارها وهي تجرب تذكّر ما يعنيه هذا الاسم، إلى أن تيقنت من أنه يعود للمستشفى المهجور الذي تحوّل إلى خرابةٍ في ضواحي المدينة. المكان نفسه الذي وُلدت فيه هي وشقيقها المفقود. ارتعشت أصابعها بقوة، وكادت تُسقط الأداة لكن جرس الإنذار في المركز قاطع ارتباكها وأجبرها على الخروج لرؤية ما يحصل.

كان صوت أحد عناصر الشرطة في الرواق يزمجر بعنف ويطلب إرسال سيارة إسعاف، وهو يصرخ:

- لقد انتحر. مزّق شرايينه!

تسارعت أنفاسها وهي تجبر نفسها أن لا تصدق كلمات الشرطي، فلم يكن الانتحار منطقيّاً خاصةً أنه لا يملك كما يفترض أي أداةٍ أخرى لتمزيق يده. كما أن المتهم بدا هادئاً حين استجوبته ولا سبب يدفعه لأن يقتل نفسه.

هرعت إلى الزنزانة، حيث تجمّع رجال الشرطة حول الرجل يشاهدون الدماء تنتفض من يده، بينما انحنى أحدهم يحاول قطع الدماء بعد أن مزق أحد أكمام المتهم لصنع ضمادة ريثما تصل النجدة.

عبث صدى الجرس المزعج بأفكار المحققة، وهي تتابع بذهول عيني الرجل الغارق بالدماء بعد أن قُطّعت شرايينه بطريقة مريبة، لقد خُيِّل لها أنه يراقب نظراتها القلقة ويستشعر خوفها.

- «هذا ليس انتحاراً.. إنه تحذير».

فكرت وهي تلتفت لمغادرة الغرفة على وقع أصوات أقدام رجال الإسعاف الذين اقتحموا المركز لأخذ المتهم، وشعرت بأنفاسها الثقيلة وآذانها التي تكاد تُصم من صخب الأصوات الهائلة حولها، لذا عادت مجدداً إلى مكتبها وأغلقت الباب خلفها ريثما يعود الهدوء

ART_OF_BOOK

إلى المكان، ثم أخرجت عبوة المسكنات وتناولت كبسولتين و
الدواء صار أشبه بالحلوى.

لم تكن الحبوب التي تركت عبوتها على المكتب قد أخذت مفعوه
بعد، حينما تناولت حقيبتها وهرعت بالخروج على أمل أن يخفف
استنشاق الهواء صداعها الشديد. كانت تجر جسدها وتجرب التوازن
بصعوبة والاتكاء على الجدران وسط نظرات زملائها الغارقين
بأعمالهم الورقية التي لا تنتهي، لكن وقبل أن تتخطى قدمها الباب
فوجئت بسيف الواقف قبالة المدخل، يحمل كاميرته مع آثار أتربة
وبعض القش الذي علق على محيط معطفه من الأسفل.

وسط التوتر المشحون تبادلا نظرةً صامتةً، ثم تجاوزته المحققة
وهي تتجنب رائحة النار التي تنبعث من ثيابه. يبدو كمن قضى
الليلة في العراء.

– القتلة يتركون خيوطاً لمن يجرؤ على تتبعها.

همس سيف من خلفها، مما أجبرها على التوقف والاستدارة
نحوه لتفهم قصده، لكنه قاطع شفتيها الباردتين عندما أخرج صورةً
التقطها، كانت جثة المتهم المتشرد نفسها بعيونٍ مفتوحةٍ وكأنها تُحدّق
مباشرةً في عدسته. ارتجفت منى. فالصورة كما يبدو التُقطت قبل
دقائق فهي تظهر لحم يده المقطوع بشكل وحشي بيد أن الأمر

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الغريب فيها والذي أجبر المحققة على خطف الصورة والتمعن فيها كانت الدماء التي اختفت عن وجهه.

- كيف حصل ذلك؟

- كنت في المستشفى أكتب أحد تقاريري عندما..

- ليس هذا!

- لم أفهم قصدك!

قال وهو يمرر إصبعه على الندبة في رقبته، ثم انسحب إلى الخلف بعد أن توقفت منى عن مبادلته الحديث فقد انهمكت بين تفسير نكرانه والغرق في تفحص وجه الجثة، كأنها تنتظر منه أن يخبرها بما حصل.

كان قد اختفى سيف من أمامها حين رفعت نظرها عن الصورة وكأن الضباب الثقيل ابتلعه بمكر، لذا وضعت الصورة في جيبها وجمعت ما أمكن من الهواء داخل رئتيها الضيقتين ثم قررت الرجوع إلى مكتبها، حيث تنتظرها جرعةٌ إضافية من الحبوب التي لم تعد تكفيها لتهدئة أوجاعها.

- وضعتُها في الدرج.

أخبرها زياد وهو يتكلم عبر أحد هواتف المركز بينما كانت في طريق عودتها، مشيراً إلى أنه ترك لها الرسومات المقطّعة لمعاينتها قبل

ART_OF_BOOK

أخذها لقسم الأدلة، لكن ما أن وصلت للمكتب سارعت لتناول كبسولتين إضافيتين متجاهلة أي أسباب أخرى تشحن صداعها.

جربت إراحة عينيها قليلاً لكن أفكارها المتخبطة قادتها لفتح ملفٍّ قديمٍ عن مستشفى النور، والذي كانت تحتفظ به في أحد أدراج خزانتها المعدنية قرب الباب. بحثت قليلاً بين التواريخ إلى أن وجدته ثم أحضرته إلى مكتبها وبدأت البحث داخله، لقد كان الملف يحتوي على شكوى تتضمن أعمالاً مشبوهة لأحد الأطباء هناك لكن محاميه أثبت أنها مجرد اتهاماتٍ باطلة لتغلق القضية على إثرها، ثم وبعد تقليب بعض المستندات الأخرى لاحظت وجود أوراقٍ غريبةٍ تجهل وجودها تتضمن ادعاءاتٍ بخطف أطفال من المستشفى.

تمعنت قليلاً في صورة أحد الأطفال الذي ظهر وجهه بينما كان مغطّىً ببطانيةٍ بيضاء داخل حضن ممرضةٍ ذات وجه بارد، شاهدت منى عينيه اللتين شعرت أنهما مألوفتان قليلاً.

ربما مضت الدقائق أسرع على غير العادة بعد مغادرة سيارة الإسعاف، حين اقتحم زياد مكتبها من جديد وهو يعلن وفاة المتهم بعد أن توقف قلبه إثر فقدانه كميةً كبيرةً من الدماء.

تتالت الأحداث بسرعة وكأن كل شيءٍ كان يحدث في وقتٍ

واحد. كان نبأ وفاة المتهم بالنسبة لها أقرب لسكينٍ يخترق رأسها، ولوهلةٍ شعرت بأن الأرض تتمايل تحت قدميها، لم يكن الانتحار منطقيّاً، خاصةً أنه لم يكن لديه أي دافعٍ لتمزيق شرايينه، وإن حصل فلن يستخدم ذاك الأسلوب الشنيع ليقتل نفسه، ربما كانت هناك يدٌ خفيةٌ تتحكم به.

في تلك الليلة، حين أوصلها زياد للمنزل مرهقة، لم يغادر حتى اطمأن إلى أنها أغلقت الباب خلفها وسارت باتجاه غرفتها دون أن تعبر بوالدها أو تفكر في المرور نحو الثلاجة وقراءة ملاحظات الممرضة التي تتركها يوميّاً مثل تقريرٍ مفصل عن مجريات ما حصل هذا اليوم.

دخلت الغرفة، أضاءت النور، واستلقت فوق السرير جثة هامدةً أخرى تتابع السقف الأبيض الذي يدور بها بينما كانت تحاول النوم، إلى أن أغمضت عينيها وتركت الأحلام تتسلل وتغزو أفكارها الهشة، وهي تشاهد الصور المتدفقة الباهتة من ماضيها والأقرب لشريطٍ سينمائيٍّ يعرض أحداثاً لا تتذكرها، لقد رأت نفسها داخل مرآةٍ قديمة، حيث انعكس وجهٌ آخرُ منها، وجهٌ يشبهها لكنه ليس وجهها، مع دماءٍ غزيرة كالجدول نبتت عبرها أشجار شاهقة مع جثث معلقةٍ على أغصانها أشبه بثمار الموت.

***

في ناحيةٍ أخرى، داخل غرفة واسعة مهجورة، كان الضـ
الخافت يتسلل عبر الزجاج القذر، ملقياً بخيالاتٍ غريبة على الجدران المتشققة، وقد اخترقت الصمتَ أنفاسُ القاتل الثقيلة الخارجة من خلف كمامة طبية فتتصاعد وتنخفض، فكل شهيقٍ وزفير كان يتردد في الفضاء الضيق، كأنما هواء الغرفة نفسه يرفض أن يتحرر من قبضة ذلك الشبح الذي يقف وسطها، وكل خطوةٍ يخطوها على ألواح الأرضية الخشبية تُطلق أنيناً طويلاً، كأن المكان نفسه ينزف ذكريات الموتى.

يداه النحيلتان، كانتا تتحركان ببطءٍ مقصود وكل حركة تُخطط بعناية فائقة، بينما كانت الأصابع المغطاة بقفازات سوداء تلمس الأدوات الجراحية المصفوفة على الطاولة المعدنية الصدئة، حيث المشرط اللامع يستمد نوره من الظلام نفسه، فيتحرك بسلاسة فوق جثةٍ ممددةٍ على الطاولة لم تظهر تفاصيل وجهها، وهي تُشرَّح بعنايةٍ فائقة وكأن القاتل ينحت تحفةً فنيةً من لحمٍ وعظم.

كانت أنفاسه تتصاعد كلما ازدادت كميةُ الدماء النازفة، فتواكب إيقاع حركات اليدين، وكل قطعة لحم تُزال، وكل شق يُفتح، كان يرافق بزفيرٍ طويلٍ، لقد تحركت الأدوات لتعزف للموت لحناً لا يُسمع إلا في أرواح أولئك الذين يعيشون في الظلام.

تموّجَ الضوء الخافت على جدران الغرفة، ملقياً بظلال متحركةٍ تُضفي طابعاً شبحيّاً على المشهد، أما الزجاج القذر فكان يعكس أشكالاً مشوهة، فتشارك الغرفة نفسها في هذا الطقس الغريب، وكل شيء كان يتحرك ببطء، كأن الزمن توقف ليسمح للقاتل بإتمام مهمته بكل دقة.

وعلى الجدار المقابل، تلتصق قصاصات ورقٍ مصفرة ملوثةٌ ببصمات دماءٍ قديمة. وصورٌ لضحايا سابقات متشابهات، مع خطوطٍ حمراء تربط بينها كشبكة عنكبوت، وفي المنتصف، دائرةٌ سوداء تحيط بثلاث نقاط طبعتها أصابع القاتل.

جاء الهواء فجأةً محمَّلاً بصدى بوق سيارةٍ قادمة من بعيد، مما أجبر الظل على التوقف لبرهة، حيث تجمدت رئتاه، وعلق المشرط في منتصف الهواء، ثم وكأن شيئاً لم يكن عادت الأصابع إلى عملها بشراهةٍ أكبر، وهي تُقطّع الأربطة بخبرة الجزار الذي يعرف بالضبط ما يفعل.

***

في الصباح، ورغم محاولاتها اليائسة لتتذكر شكل تلك الجثث الصغيرة، أو ماهية ذلك الوجه المنعكس إلا أن صورته كانت تختفي

بمجرد أن تصيبها وخزات مؤلمة داخل رأسها، تاركةً إياها في
من الارتباك والإرهاق بعد أن أمضت الليلة وهي تتقلب مثل قطعة
لحم فوق مقلاة ساخنة، لتندفع مجبرةً على النهوض والخروج من
المنزل مشياً باتجاه مركز الشرطة قبل موعد عملها بأكثر من ساعة،
وهي تحاول تنشق هواء الصباح البارد على أمل أن تهدئ من روعها.

لم تفكر أثناء مغادرتها في إعلام زياد، بل سارت داخل الشوارع
الضبابية المزدحمة بالمارة وهي تتجنبهم. حيث كانت تفكر في الجرائم
السابقة، الأدلة الجديدة، الأوراق المقطعة، وبشقيقها التوءم أيضاً،
وفجأة، اعترضها شبح رجل طويل أمامها، فرفعت رأسها الثقيل
بالأفكار لتُفاجأ بوجود سيف بمعطفه المعتاد، وهو يبتسم تلك
الابتسامة الغامضة التي لا تفارقه.

- مصادفةٌ سعيدة.

تجهل منى لمَ وضعت يدها على مسدسها في الخلف من اللحظة
التي وقعت فيها عينها عليه.

- اهدئي، لم أقترف أي خطأ!

لفت تصرفها الحذر أنظار بعض المارة حول موقف الحافلات،
لذا استعادت توازنها وتركيزها قليلاً قبل أن تنهال عليه بالأسئلة:

- كيف التقطت تلك الصورة؟!

- كأي مصور تحقيقات آخر، أنا أتابع كل ما يتعلق بالجرائم وأقوم بتوثيقها للصحيفة، دون أن أعبث بأي أدلة موجودة.

ربما قال آخر جملة لتهدئتها بعض الشيء، خاصةً أن وقفتها الحازمة كانت تجعل عيون من حولهما مسلطةً نحوهما.

- ما الذي تريده؟ ردت منى بحذر، وهي تحاول أن تخفي ارتباكها.

- هذا طريقي اليومي، لكنها المرة الأولى التي أصادفك فيها.

- حاول أن تبتعد عن الجرائم التي أحقق بها، والآن أرجو المعذرة أريد المغادرة.

- إنني ضحيةٌ سابقة للمجرم، لن أتوانى عن المساعدة في الإمساك به أيتها المحققة!

قالها بصوت غاضبٍ قبل أن تغادر المحققة، ثم عاد وكرر طلبه بالانضمام إليها للانتقام من القاتل قائلاً:

- أعلم أنك تبحثين عنه أيضاً، وأعلم أنك تتوجسين بقائي قربك لكن صدقيني أنا هنا لأساعدك.

لم تستطع منى أن تنكر أن هناك شيئاً ما في عينيه يجعلها تشعر ببعض الأمان، ربما شغفه للقبض على غريمه، ربما كان هذا السبب

الذي دفعها لتسمح له بمرافقتها، قد تكون محاولةً محفوفةً بالمخ
منها على أمل أن تكتشف المزيد عن هذا الرجل الغامض.

انطلقا وسط الضباب الخفيف الذي يحك أنفيهما، وبينما كان يسيران بدأ سيف يتحدث عن الماضي، وأخبرها عن آثار نجاته من القاتل المريرة التي لا تزال ترافقه حتى الآن، من الكوابيس اللعينة التي تمنعه من النوم وهي تعكس صور الفتيات القتيلات، وصولاً إلى معاناته من الخوف والهوس الدائم بالمجرم والتي حاول أن يوظفها في عمله، استرسل سيف في كلامه وسط صمت تام من منى كأنها تدون كل حروفه داخل رأسها حتى تحاول بصفتها محققة أن تفهم شخصيته وأفكاره.

كانت كلماته تثير المزيد من الأسئلة في ذهنها، لكنها فضلت السكوت والاكتفاء بالإنصات وهي تنزل عن الرصيف نحو الجهة الأخرى من الطريق شاردة الذهن وتتابع الإسفلت الأسود المخطط بالأبيض، لكن فجأةً، سمعت صوت محرك سيارةٍ يقترب بسرعة، والتفتت لتشاهد سيارةً سوداء تتجه نحوهما، ووسط ارتباكها وقبل أن تتمكن من استيعاب ما يجري، دفعها سيف بعيداً عن الطريق، حيث عبرت تلك السيارة بسرعةٍ مهولة رغم الضباب الكثيف والإشارة الطرقية التي كانت حمراء تلك اللحظة.

سقطت منى على الأرض، وشعرت بقلبها يخفق بقوة، ثم نظرت إلى سيف الذي كان انحنى صوبها على وجه السرعة للاطمئنان عليها.

- هل أنت بخير؟؟ سألها بعينين توحيان بقلقٍ حقيقيٍّ، إضافة لنبرة ذعر واضحةٍ رافقت صوته.

- نعم، أنا بخير.

ردت منى، وهي تلهث خائفةً وتنفض الأوساخ الرطبة العالقة الملتصقة بكفيها وبأجزاء من ثيابها.

- هاتِي يدكِ.

لم تبالِ بيده الممدودة نحوها، بل نهضت وهي تتمتم ببعض الشتائم على السائق الأرعن الذي غاب داخل الضباب، ولم تكلف نفسها شكر الرجل الذي أنقذها للتو وعلى نقيض ذلك شعرت بأن وجوده بدأ يجلب لها الحظ السيئ، لذا لم تقاوم رغبتها في المغادرة والابتعاد عنه على الفور، حيث أوقفت سيارة أجرة انطلقت بها نحو المركز، تاركةً خلفها نظرات سيف المعلقة على الزجاج الخلفي للسيارة الصفراء.

كانت المحققة منى قد وصلت لتوها إلى مركز الشرطة بعد الحادث الأخير، وأصابعها تحك عبوة الحبوب الفارغة في جيبها بينما تسير صوب مكتبها، وكلمات سيف لا تزال تدور في رأسها:

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

«القتلة يتركون خيوطاً لمن يجرؤ على تتبعها»

فتحت الباب ودخلت المكتب دون أن تلقي التحية على الزملاء الذين أنهوا مناوبتهم الليلية، ثم جلست بثاقل وعيناها تحدقان في الفراغ، وكأنها تحاول استيعاب ما حدث، ولم تمضِ لحظاتٌ حتى بدأ الهواء البارد يتسلل عبر النافذة المفتوحة قليلاً، مثيراً قشعريرةً في جسدها وجعلها وسط شرودها تتخيل أن شيئاً ما يلاحقها، كأنما ظل القاتل قد تسلل إلى مركز الشرطة نفسه، فاليدان اللتان كانتا تتحركان ببطء في الغرفة المهجورة، كانت تتحسس وقعها في رأسها، والأنفاس الثقيلة التي كانت تتصاعد في الظلام، كانت تتردد في أذنيها وكأنها داخل تلك الغرفة.

أما الضوء الخافت في مكتبها فكان بدوره يعكس ظل بعض الأدوات حولها، ملقياً بأشكال خُيّل لها أنها تتحرك وتُضفي طابعاً شبحيّاً على المشهد، بينما عكس الزجاج القذر أيضاً تفاصيل مشوهة، كأنما يشارك مكتبها في هذا طقس القاتل الغريب.

كل شيءٍ كان يتحرك ببطء، كأن الزمن قد توقف ليسمح لذاك

ART_OF_BOOK

المهووس بإتمام مهمته بكل دقة، حيث وعلى الطاولة ذاتها عاد المشهد للجثة بلحمها المفتوح وأجزائها المقتطعة، وفي يديها قصاصاتٌ ورقيةٌ تحمل أجزاء من خطوطٍ غريبة.

أجفل المحققة رنين الهاتف الذي اهتز في جيبها، وكأنه يحاول إيقاظها من غفوتها التي كانت أقرب إلى حلمٍ مزعج. نظرت إلى الشاشة وشاهدت اسم زميلها زياد قبل أن تجيب.

- أنا هنا خارج منزلك. هل أنت جاهزة؟

صمتت المحققة لبرهة، وكأنها تحاول أن تجمع أفكارها المضطربة. ثم همست بصوتٍ مرتجف:

- أنا في المركز، لقد سبقتك.

كانت كلماتها تخرج ببطء، وكأنها تحاول أن تشرح سبب خروجها بمفردها، ولماذا لم تنتظره كما اعتادت أن تفعل، ربما كان ذلك بسبب الكوابيس التي طاردتها طوال الليل.

- لكن... هذه المرة الأولى التي تخرجين فيها وحدك، أأنت بخير؟ قال زياد مستغرباً.

- نعم، نعم لا تقلق، أنا بانتظارك.

ردت منى، وهي تحاول أن تخفي ارتباكها ثم أنهت الاتصال.

نهضت واستدارت نحو النافذة تنوي إغلاقها، ثم اقتربت وهي

تراقب الضباب يزداد ثقلاً ويخطف المارة في الشارع وفي كل حولها، وكأن المدينة كلها قد اختفت تحت غطاءٍ رمادي.

رفعت عينيها حيث تقف إلى الساعة على الحائط المجاور، كان الوقت يمر ببطءٍ شديد، وهي تشعر بثقل هائل على صدرها وبأن كل ثانيةٍ تمر كانت تزيد من توترها، وكأنها تنتظر شيئاً ما سيحدث قريباً. لكنها لا تعرف ما هو.

ما أن وصل زياد إلى المركز حتى اتجه بشكل تلقائي صوب المحققة، حتى فتح الباب وألقى التحية وهو يتقدم صوب الكرسي الجلدي العريض القديم حيث جلس قبالتها، ثم نظر إليها بتمعن وكأنه يشعر بأنها تخفي شيئاً ما. لكنه قرر ألا يضغط عليها خاصةً أنها بدت مرهقةً ومضطربة.

- لقد وجدتُ شيئاً غريباً في ملف مستشفى النور.

قال وهو يمدّ يديه نحو مجموعةٍ من أوراق التقارير المرتبة على الطاولة، حيث سحب واحدة منها كان قد وضعها آنفاً أمامها قبل خروجه من المكتب، ظنّاً منه أن المحققة لم تطّلع عليها حتى الآن.

أخذت التقرير من يده لتعيد قراءته بانتباه أكبر وبدأت تتفحصه بعناية، لقد شاهدت جميع تقارير الملف الطبية القديمة وصور الأطفال المجهولين المرفقة فيها، بالإضافة إلى بعض الملاحظات

المكتوبة بخطٍّ غير واضح، لكن لا تعلم لَمَ فاتها ما كُتب في هذه الورقة: «قال أحد الممرضين: لاحظت الطبيب ممدوح يحمل توءماً بين كلتا يديه ظُهر اليوم الذي تلا اختفاء أحد الأطفال الحديثي الولادة، كان مرتبكاً للغاية وهو يغادر الجناح عبر المصعد»، وقال شاهدٌ آخر كان رجل النظافة المسؤول عن تنظيف الممر القصير الذي يفضي إلى المرآب: «كان الطبيب يحمل لفافةً قماشيةً واحدة لم أستطع رؤية ما تحتويه وهو يعبر قربي بينما كان يغادر المصعد متجهاً صوب المرآب، حيث ألقى التحية كعادته، وغاب لدقيقة واحدة قبل أن يعود ولا يزال يحمل بين يديه اللفافة ذاتها».

- أنا لا أفهم!

قالت وهي تعود لباقي التقارير التي أكدت عدم ضلوع الطبيب بتلك الجرائم، حيث أثبتت الكاميرات أنه لم يغادر مكتبه على الإطلاق حتى أنه لم يقترب من حاضنات الأطفال في ذلك اليوم.

- إنه يبدو متورطاً أليس كذلك؟ لكنْ هناك أمرٌ مريب في مجمل هذه التقارير، هناك تفاصيل ناقصة أو متناقضة!

رد زياد، وهو يشير أيضاً إلى بعض الملاحظات المكتوبة بخطٍّ يدوي، وفي أثناء ذلك شعرت منى بأنها أمام لغز محير يبدو مألوفاً وغريباً، لكنها لم تكن قادرةً على رؤية الصورة الكاملة. كانت

ART_OF_BOOK

الأحداث تتشابك بشكلٍ مربك، وكأن كل شيءٍ كان مرتبطاً بعضه ببعض لكنها لا تعلم كيف.

انتهى العمل هذا اليوم أخيراً وحل المساء بعد ضجرٍ شديد أصاب المحققة، وهي تجرب حل لغز هذا الطبيب الأقرب لمعضلة حقيقية، فلا أثر لأي دليل ملموس يوضح معالم ما جرى، حتى الطبيب ذاته الذي ذكر أنه تقاعد، تم دس تقرير آخر بخط اليد يفيد بأنه انتحر.

غادرت المحققة المركز رفقة زياد لأنها لم تشأ أن تعيد تجربة الصباح السيئة وتذهب مشياً، وعلى طول الطريق لم تبادل زميلها أي حديث عابر بل وصلت للمنزل ودخلت بهدوء، ثم وعلى غير عادتها تفقدت والدها بنظرةٍ خاطفة داخل غرفته فكان نائماً داخل كرسيه متدثراً بغطاءٍ خفيف، ثم أغلقت الباب وذهبت صوب المطبخ لتناول بقايا الطعام الذي أعدته الممرضة لوالدها قبل مغادرتها.

في الليل وبينما كانت تستعد للنوم، أخرجت علبةً أخرى من الدواء وتناولت حبتين في شكلٍ غدا أقرب للإدمان، إنها تعلم ذلك لكن الحبوب أصبحت سبيلها الوحيد حتى تتمكن من النوم بسلام، أو ربما أوهمت نفسها بذلك، فمن اللحظة التي أسدلت بها جفنيها واستسلمت للدوار الذي يحبط أفكارها، عادت الأحلام لتطاردها مرةً أخرى.

ART_OF_BOOK

رأت نفسها هذه المرة داخل أروقة مستشفى النور، وهي طفلةٌ صغيرة تحاول أن تهرب من شيءٍ ما، وكانت هناك أصواتٌ تهمس في أذنيها، وأشباحٌ تظهر وتختفي خلف زجاج غرفة العناية المركّزة، والرعب يدب في قلبها مع أيدٍ تشد شعرها الناعم للخلف، وتمسك يدها وتعصرها بقوة تاركةً علامات سوداء حارقة، بينما كانت تصرخ بكل ما أوتيت من رهاب وهلع دون أن تتمكن من الخروج من ذاك الكابوس المزعج.

أيقظها صوت سعال قوي قادم من غرفة والدها، وكان الوقت أقرب للفجر مع خيوط حمراء رفيعة كالدماء تتسلل عبر فتحة ستارة النافذة الواسعة، بينما كان وجهها متعرقاً بشدة رغم الجو البارد، حيث آثار الحبوب لا تزال تعبث بمخيلتها وتثقل كاهلها. جربت أن تتذكر ماهية تلك المشاهد لكن الصور كانت تتبخر على الفور، تاركةً إياها في حالةٍ من الارتباك والخوف، خاصةً أنها لا تعلم شكل ذلك المستشفى على الإطلاق حيث لم تقم بزيارته، أو ربما فعلت ذلك لكنها لا تتذكر.

في الصباح، قررت منى أن تذهب إلى مستشفى النور المهجور، على أمل أن تجد بعض الأدلة التي تساعدها في كشف الحقيقة، وبالفعل أرسلت لزميلها بأنها متوعكة قليلاً وستأخذ اليوم كإجازة،

بعد ذلك انطلقت بمفردها بعد أن أوقفت سيارة أجرة، حيث أمرته بالتوجه إلى مكان قريب من المستشفى، وهي تتابع عبر خريطة هاتفها المحمول المنطقة المطلوبة.

عندما وصلت، شاهدت كم الخراب الذي لحق بالشارع مع منازل قديمة على كلا جانبيه يقطنها بعض المتشردين، وسارت بينهم باتجاه المكان المنشود وهي حذرةٌ من النظرات المثيرة للقلق من أعين الناس، فلم يعد أحدٌ يزور هذا المكان بعد أن أعلنته الدولة منطقة غير صالحةٍ للسكن، إثر تسرب غازات سامة من أحد المعامل القريبة قبل أكثر من ٢٥ سنة.

وجدت منى بوابة المستشفى مغلقةً بسلاسل حديدية، لذا اضطرت لأن تكسر زجاج إحدى النوافذ حتى تتمكن من الولوج للداخل، ثم أخذت تسير ببطء وهي تضيء طريقها بضوء هاتفها، لكن وبينما كانت تتجول في الممرات المظلمة، سمعت صوت خطواتٍ خلفها، ربما ظنت للوهلة الأولى أنها تتوهم، لكن ما أن التفتت خلفها حتى شاهدت شبح الرجل الضخم وراءها، إنه سيف الذي وقف هناك يحمل مصباحاً قويّاً، وهو يبتسم ابتسامته الغامضة التي لا تفارقه.

- لا تجزعي هذا أنا، علمت أنكِ ستأتين إلى هنا.

قال سيف بصوتٍ هادئٍ وهو يشير لها بخفض سلاحها بعد أن أجفلها صوته، بينما كان يتقدم نحوها.

- هل لحقت بي؟!

ردت منى بخوف ويدها ترتجف على الزناد، تحاول أن تتمالك أعصابها وتخفي الهلع الذي اعتراها.

- لقد تفحصت محيط هذا المكان أكثر من مرة على أمل أن أجد دليلاً يفيد بوجود ما يربط الأحداث الحاصلة، لذا علمت أنك ستبحثين عن الحقيقة فيه مثلي، وأنا هنا لأساعدك.

لم تتمكن المحققة من الوثوق بكلماته المطمئنة، رغم أنه أنقذها من الموت دعساً تحت عجلات تلك السيارة المسرعة، لذا قررت أن تُعيد مسدسها إلى محيط خصرها وهي تراقب خطواته الهادئة تقترب باتجاهها.

- هل يمكن أن تهدئي الآن؟ أنا متيقن أن ما يجول في خاطرك هو السبب الذي دفعني لمراقبتك، لكن أريد أن تتيقني أنها مسألة تخصني أنا أيضاً.

شرح موقفه بينما أخذ يتقدم المحققة ويضيء الغرفة المهجورة المخيفة التي تتدلى على نوافذها مصايد العناكب بشكلٍ كثيفٍ حجب الرؤية للداخل.

- إنه تحقيق خاص بالشرطة، كما لا يمكنني تحمل مسؤولية وجودك، لذا أرجوك غادر المكان وابق بعيداً عن هذه القضية ريثما نصل إلى القاتل.

لم يستمع سيف لتحذيرات منى بل تجاهل كلامها وتابع وهو يرصد جميع الغرف المحيطة على طول الرواق الطويل كما يبدو، الذي يفضي إلى أروقة أخرى تتقاسم هذا الرعب.

تحت جُنح القلق والارتباك، تجولت المحققة يتقدمها سيف في المستشفى المهجور، حيث جمع الأخير معلوماتٍ كثيرةً عن ماضي هذا المكان المشؤوم، عن قصص الجرائم التي ارتكبت هنا ولم يتم التحقق منها ولم يجد أحدٌ أي دليلٍ على وقوعها سوى تلك الشائعات التي ملأت حناجر الشهود المذعورين، وعن الأطفال الذين اختفوا دون أثر، فكانت كلماته تثير المزيد من الأسئلة في ذهن منى فكلماته تؤكد تلك الروايات التي سمعتها أيضاً، لكنها لم تكن قادرةً على استيعاب حقيقة تلك الأحاديث.

فجأة، ارتعدت أوصال المحققة حين سمعت صوتاً قريباً يهمس في أذنها، والتفتت للخلف تضيء الممر بهاتفها وتنظر بتمعن، حيث خيّل لها أنها رأت طفلةً صغيرةً تقف وحدها، تنظر إليها بعيونٍ مليئةٍ بالخوف، ومن هول المشهد حاولت أن تقترب منها لتتحقق

مما تراه، لكن قبل أن تخطو أولى خطواتها اختفت الطفلة فجأةً داخل العتمة كأن أحداً قد جرها للخلف، أو اندثرت في السواد الذي يلف المكان، تاركةً إياها في حالةٍ من الريبة والرعب.

- هل رأيتِ شيئاً؟

سألها سيف، وهو ينظر إليها بقلق. بعد أن انتبه لحركتها المريبة خلفه.

- لا... لا شيء.

ردت منى، وهي تحاول أن تخفي معالم خوفها، وأن تتجاهل ما رأت ظنّاً منها أن إدمانها على الحبوب المهدئة جعلها تتوهم ما تراه.

في تلك اللحظة، شعرت منى بأنها تسمع وقع خطواتٍ في الأمام، لكنها تجهل ماهيته، حيث تشابكت أفكارها وأقدامها المسرعة بشكلٍ مربك، وكأن هناك ما يدفعها للاستمرار، لكنها لم تكن قادرةً على فهمه، لذا استمرت رفقة سيف في عبور أروقة المستشفى، وهي تنصت للأصوات التي غدت الآن أكثر وضوحاً، بينما صار الهواء النافذ إلى صدرها ثقيلاً، يترافق مع رائحة العفن التي تملأ المكان، وكل خطوةٍ لهما كانت تثير صدىً في الممرات الفارغة، وكأن المكان يحاول أن يخبرهما عمّا جرى، لكن بلغةٍ لا يفهمانها.

مجدداً، شعرت منى بوخزةٍ غريبة في ظهرها، كأن يداً امتدت إليها

من الخلف، فالتفتت بسرعة وضربات قلبها تكاد تسمع للخارج وسط الصمت المطبق للمكان، لكنها لم ترَ سوى الظلام الكثيف، بينما سيف الذي كان يسير بجانبها بدا وكأنه شعر بالشيء نفسه دون أن يفصح عن الأمر، فقد توقف للحظة، ونظر حوله بقلق.

- هل شعرتِ بذلك أيضاً؟

سألها بصوتٍ خافتٍ، وكأنه يؤكد وجود شيء يراقب خطواتهما.

أومأت برأسها بالإيجاب، وهي تحاول أن تخفي التوتر المتزايد والغريب الذي احتل جسدها، رغم أنها مرت بتجارب مشابهة في أماكن خطيرةٍ موبوءة بالمجرمين دون أن تتأثر بها.

خطر لها أن تلك فعلة أحد المشردين الذي يجرب إبعادهما عن الحي، ربما أرادت اختلاق أي أفكارٍ تخفف من وقع القلق الذي يستنزف جسارتها، لذا تابعت سيرها رفقة سيف بحذر واضح، بعد قليل بدأت بعض الأصوات تصدر من خلفهما، قبل أن تتلاشى مع اللحظة التي استدارت فيها نحوها، مما أجبرها على اتخاذ القرار بالمتابعة وعدم التراجع رغم المحاولات الغريبة لإفزاعها وإرسالها خارج المستشفى.

ما أن انتهى الممر الأول حتى بدأ آخر على يمينهما، ويحتوي غرفاً مهجورة ذات أبواب مفتوحةٍ على وسعها الواحد تلو الآخر،

ART_OF_BOOK

وخطوات منى المتثاقلة تتردد كالصدى في الممرات، كدقات عقارب ساعة تنذر بكارثةٍ قادمة.

كانت تمسك بهاتفها تتبع العلامات الباهتة على الجدران، حيث توجد خربشات حمراء تشبه دماء جافة، وأرقامٌ مشوهة، ورموزٌ دائريةٌ مكررة تحيط بها ثلاث نقاط كعيونِ شيطان.

- انظري هنا!

همس سيفٌ فجأةً، مشيراً إلى بابٍ حديديٍّ مائلٍ تم انتشاله من موضعه وتركه متكئاً على الجدار، وقد أخفى تحته بعض الأوراق المتعفنة، مما دفعه للتقدم صوبه ومحاولة إزاحته بكتفه حيث سبّب ثقله أنيناً طويلاً كصرخة موتى وهو يسحبه على البلاط، وما أن انتهى حتى وجه الضوء نحوه تحت نظرات منى التي تتفقد مراراً الباب والممر خشية أن يتسلل أحد المتشردين خلفها.

وقع ضوء المصباح على تلك الزاوية الضيقة، فكشف عن رفٍّ معدنيٍّ مغطّىً بأدواتٍ جراحية قديمة ملوثة، كانت عبارةً عن مشارط منحنية ومتطاولة، مقصات متآكلة، وحقنٍ متحجرة.

- لا يوجد شيءٌ ذو أهمية.

قال سيف وهو يستدير نحوها ويغادر الغرفة، حيث تبعته المحققة أيضاً وهي تلقي الضوء على السقف المتشقق فوقها حيث

ART_OF_BOOK

وكأنها تدعوهما للدخول، وكل غرفة كانت تحمل في داخلها آثاراً من الماضي: أسرة صدئة، أدوات طبيةٌ مغطاة بالغبار، وجدرانٌ مليئة بالخربشات التي بدت أقرب لرسائل مشفرة أو مجرد ذكريات مشوهة.

في إحدى الغرف، وبينما تسير منى وهي ترصد بانتباه النقاط العمياء التي لا يصل إليها الضوء، وجدت دفتراً قديماً ملقىً على الأرض، فالتقطته بيدٍ مرتعشة وعيناها لا تفارقان الظلام المحيط وخطوات سيف الواقف أمامها، ثم بدأت تتفحص صفحاته الممزقة والملوثة، فكانت هناك ملاحظاتٌ مكتوبة بخطٍّ غير واضح، تتحدث عن تجاربَ أجريت في الغرفة مع توصيات للممرضين باتباع بروتوكولات طبية محددة، ولم تجد داخل هذه المذكرات ما يجعلها دليلاً مثيراً للشك تحتفظ به، لذا ألقتها على الأرض مرةً أخرى.

تذبذب الضوء في مصباح سيف وهو يستكشف الجدران المتشققة والدروج الحديدية الصدئة، محاولاً فك لغز هذا الهلع الذي ينبثق من محيط الغرفة، رائحة العفن المتسرب من الأرضية تخنق الأنفاس، وهي تمتزج مع بقايا أدوية مسكوبة تخلق نوعاً من الوباء الذي يعشعش في جدران هذا المستشفى كذكرى مسمومة،

انبثقت جذورٌ متشابكةٌ عبره، وراحت تتلوّى كأصابع عجوزٍ متصلبةٍ تخدش الصمت المزعج، بينما كان الضوء الخافت لمصباح سيف يرتجف على الجدران، مع رائحة العفن التي غدت لا تحتمل وهي تختلط بأنين الرياح العابرة من النوافذ المُحطمة.

- تمهلي!

همس سيف بينما توقفت يده عن توجيه المصباح نحو الممر الأمامي، كما التقطت منى صوت ضرباتٍ خفيفةٍ تعلو من الأسفل، كأقدام طفلٍ يجري فوق أرضيةٍ خشبيةٍ بعيدة، لكن قبل أن تستفسر عن المصدر، التفتت نحو جدارٍ جانبيٍّ حيث تتدلى جذورٌ سوداءُ غليظة بانت في ضوء مصباح هاتفها كأجساد أطفالٍ مشنوقين، بأذرعهم الملتوية الملامسة للهواء الراكد.

- توقفي عن الحركة.

قال سيف بصوتٍ مكتومٍ، حين أطفأ المصباح فجأةً، بينما استمرت المحققة بالدوران حول نفسها واضعةً يدها فوق مقبض سلاحها، دون أن تفكر في إطفاء ضوئها، وبعد لحظات احتكت أنفاس منى المتسارعة بهواءٍ بارد قبل أن تسمع من جديد همساً قادماً من الخلف.

- هل سمعت ذلك؟

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

- لا، أعتقد أنه الهواء لا أكثر.

لكن لم يكد سيف ينهي كلماته حتى انتفضت منى بعد أن استشعرت لمسةً سريعةً على كتفها، سحبت المسدس والتفت على الفور وكانت على وشك أن تطلق النار لكنها لم تجد سواه واقفاً بجانبها وقد أعاد تشغيل مصباحه.

- أظن أنها كانت مجرد خفافيش.

قال حين لمح أحدها يمر قبالة ضوئه بحركات دائريةٍ ثم غاب مجدداً وسط الظلام، ورغم ترددها بمتابعة التقدم إلا أنها أصيبت بدوارٍ سيئ كان سببه رائحة الأدوية المتعفنة المنتشرة أيضاً والتي تسربت من خزائن مفتوحة على جانبي الممر.

سلّطت المحققة الضوء داخل أول خزانةٍ تمر قربها فلمحت فيها ملابس ممرضين مُهترئةً مُعلقة، وحقناً صدئة مُتناثرة فوق رفوفٍ مغطاةٍ بطبقاتٍ سميكة من السوائل اللزجة، كما أنها التقطت ورقةً ممزقةً من الأرض، كُتب عليها بخطٍّ مُرتعش:

- «إنهم يراقبوننا»

لكز سيف كتف المحققة مُضيئاً على إحدى الخزائن المفتوحة على مصراعيها والتي تبرز فيها سلسلةٌ من الأدراج الحديدية الصغيرة، ثم تقدم ليفتح أحدها، لكنه تراجع خطوة للخلف جعلت المحققة

ART_OF_BOOK

تسرع لاستكشاف ما رآه، حيث لاقى دمىً قماشيةً بلا عيون، مُغطاةً ببقعٍ بنيةٍ من الدم، وإحدى الدمى تحمل علامةَ دائرةٍ سوداء تحيط بثلاث نقاط، تطابق جميع الإشارات المنتشرة في المكان وعلى جثث الضحايا.

- تعال بسرعة!

صرخت منى حين لاحظت ظلًّا يتحرك خلفهما ثم استدارت بسرعة، بينما ارتعد سيف فجأةً وارتد للخلف مصطدماً بها وموقعاً هاتفها المحمول ومصباحه على الأرض. كانت الثواني القليلة التي تلت غياب الضوء قبل أن تتمكن منى من إعادة توجيه مصباح هاتفها ثقيلةً للغاية، فقد تكرر معها صوت الأنفاس المشؤومة التي تعبث برأسها وتثير حفيظتها.

غضب سيف وبدأ يشتم نفسه على غبائه وخوفه، ثم استقام ليطمئن على المحققة التي أكدت له أنها بخير، ليساعدها بالنهوض وينطلق رفقتها نحو ممرٍّ جانبي صغير وفي نهايته توجد غرفة وحيدة. سارت بتحفظ تجرب كتم ألم ذراعها، ثم شاهدت وهي تعاين الطريق آثارَ أقدامٍ عديدةً تبدو حديثة العهد طُبعت على الأرضية المُغبرة، إلى أن وصلت إلى الباب الذي كان مقفلاً من الداخل.

- تراجع للخلف.

وضع سيف يديه على أذنيه وتراجع للخلف بعد أن قررت المحققة إطلاق النار على القفل حتى تتمكن من اقتحام المكان، وبالفعل استطاعت بعد طلقتين قويتين أنارتا الممر على امتداد إحداث خرقٍ واضحٍ داخل القفل، ليتقدم بعدها سيف ويركل الباب بقوة مكنته من تحرير الباب والدخول.

في الداخل وجدا سريراً حديديّاً مُغطّىً بملاءةٍ بيضاء ملطخة، وحولها نبتت جذورٌ سوداء من الأرضية المتكسرة الرطبة وامتدت للأعلى كأيدي موتى تريد الإمساك بمن يقترب منها، وفوق السرير، وجدت منى مرآةً مكسورةً عكست وجهها التائه، وبينما كانت تحملق بتركيز خُيّل لها من جديد أنها شاهدت خلفها ظلًّا رفيعاً أقرب لجسد امرأة مع يدٍ مرفوعةٍ تمسك مشرطاً جراحيّاً، فاستدارت مذعورةً للخلف تبحث عن الشبح المخيف لكنها وجدت سيف شارد الذهن، يستطلع ويعاين المكان.

شعرت منى بصداعٍ سيئٍ يقتحم رأسها، فحاولت إخراج عبوة الحبوب المهدئة من جيبها، لكن تسببت أصابعها المرتعشة بإفلاتها، حيث تدحرجت العلبة لتقع في أحد شقوق البلاط الضيّقة، رغم أنها انحنت بسرعة لالتقاطها لكن الألم الذي تكوّر داخل صدغها ومحيط جمجمتها لم يمكّنها من النجاح.

- يجب أن نغادر، لا يوجد هنا أكثر مما نعلمه، لكن كان الأفضل لنا أن نتحقق.

همس سيف بصوتٍ أجشَّ وهو يراقب المحققة التي انشغلت بمحاولة نبش علبة الدواء الغائرة، والتي بعد أن يئست من التقاطها نهضت واقتنعت أيضاً بضرورة المغادرة، وهي تشاهد عيني سيف الحادتين اللتين كانت تلك المرة الأولى التي تدقق بهما.

وبالفعل بعد أن فقدا الأمل بالحصول على نتيجة خرجَا مُسرعين نحو المدخل الرئيس، حيث كان ضوء النهار الباهت يأتي من بعيد ويخترق النوافذ المُغطاة بالأتربة، وهما يسيران بخطوات متسارعة حذرة إلى أن وصلا أخيراً إلى النافذة التي دخلا عبرها.

في الخارج وعند العتبة، التقيا بحشدٍ من الأولاد المشردين، يقفون على مسافة قريبة ويراقبون بقلق، ربما جذبتهم تلك الجلبة الناجمة عن رصاص المسدس، حيث وقفوا يتهامسون بسرعة، وعيونهم الواسعة تلمع بنظراتٍ تختلط فيها الريبة بالفضول قبل أن يتوقفوا عن الحديث.

فجأة، صاح أحدهم بضرورة الهروب وكان صوته مطابقاً لصياح كلبٍ جريح، فانتفض الجميع معه وبدؤوا يهرولون بعيداً عن المستشفى، وأقدامهم تضرب الأرض كطبولٍ مجنونة.

ART_OF_BOOK

- ربما كان هؤلاء الأشقياء سبب تلك الأصوات!

قال سيف وهو يشاهدهم يختفون خلف المنعطفِ الضبابي، بينما فضلت منى السكوت وهي تعاني من صداعها السيئ، وقد انتبه سيف لحالها فجرب إقناعها بالذهاب للمنزل:

- إن حالتك سيئة، سأعيدك إلى المنزل.

رفضت منى بحزمٍ طلبه وأكدت أنه مجرد صداع عادي سيختفي ما أن تحصل على دوائها، وفي طريق العودة، بعد أن قررت بشخصيتها الهشة الصمت على أمل أن يملّ سيف من مرافقتها وينطلق بعيداً عنها، ثبتت عيناها على آثار الأقدام الصغيرة التي تركها الأولاد على الطين، والتي بدأت تتساقط فوقها أمطارٌ خفيفةٌ كالدموع الخجلة، بينما لاح خيال أحدهم وهو يتابع ابتعاد المحققة وسيف من داخل إحدى نوافذ المستشفى.

***

كانت أصابع زياد متوترةً فوق شاشة الهاتف بينما يُعيد الاتصال للمرة الثالثة، وأصوات صفارات الإنذار تزمجر خلفه كوحوشٍ جائعة، بينما يصرخ أحد الضباط مُشيراً إلى بقعة دماءٍ تَلوح من بعيد

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

تحت أعمدة الإنارة الباهتة. لم تُجب منى، خطها مغلق منذ بعض الوقت مما استدعى زميلها أن يقوم بإرسال رسالة عادية، ثم أتبعها بعدة رسائل أخرى على أمل أن تستلمها، قبل أن يتنهد

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

في كل صمتٍ فادح، هناك صرخة تنتظر أن تتحرر.

ART_OF_BOOK

بعنفٍ وهو يدفع الهاتف إلى جيبه، ويومئ لسائق الدورية بالتقدم نحو الزقاق الضيق حيث تتدلى جثةٌ جديدةٌ من حبلٍ غليظٍ مثّل نهايةً مأسويةً لطفلةٍ أخرى.

في الجانب الآخر من المدينة، بعد أن عادت الشبكة الهاتفية لتعمل، صدحت أصوات الرسائل المتتالية على هاتف منى والتي التقطته على الفور من جيبها وهي تقرأ محتواها المريب القادم من زياد:

- «أين أنتِ؟ أحاول الاتصال منذ ربع ساعة دون فائدة!»
- «مكانٌ جديد.. خلف السينما القديمة، الزقاق الضيّق، لا تتأخري !»
- « أعلم أنك متوعكة لكن عليّ إخبارك بالأمر، أعتقد أن القاتل هنا!»
- «الدماء لا تزال دافئة. أسرعي.»

لم تكد تنهي قراءة بقية الرسائل حتى أخذت قدماها تلقائياً تسرعان وهي تتفادى الانزلاق عبر الطين والأوساخ، بينما اندفعت أنفاسها الساخنة وشكّلت طبقةً من الضباب غبشت شاشة هاتفها، أما سيف الذي انتبه لتوترها، وهو يمد يده اليسرى لتَحُك الندبة على رقبته كطقسٍ اعتيادي:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

- ماذا هناك؟!

صاح دون أن يلقى استجابةً من المحققة لذا توقف عن السير خلفها وهو يراقب خطواتها الخفيفة التي راحت تغيب في الشارع وسط صياح بعض الأولاد وأهاليهم، ومواء القطط العنيف المتنافسة على زعامة الحاويات.

ما أن وصلت منى إلى نهاية الحي المشبع بالأسى حتى تابعت قراءة بقية الرسائل الأشبه بتقارير قصيرة:

- «العلامة السوداء.. الدائرة نفسها!»

- «هناك أوراق مُمزقة داخل جيبها.. أغلب الظن أنها رسوم أيضاً.»

بعد دقائق من الانتظار وصلت سيارة أجرة، فأشارت منى لها بالتوقف وغادرت على الفور وهي تشير للسائق بالتوجه بأقصى سرعة للمكان الذي أبلغها زميلها عنه.

لم تكد تقطع بعض الأزقة حتى رن هاتفها، وجاء صوت زياد من خلاله متقطعاً كان سببه الشبكة الهاتفية السيئة في المنطقة لكن يبدو على نبرته ذعرٌ واضح، فما زال حديث العهد ليحتمل هذه المشاهد القاسية.

- اهدأ أنا في طريقي إليك.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

- أغلقنا الشارع..... الجيران يقولون إنهم..... كما أنهم سمعوا صوت سيارة تدخل الزقاق قبل حوالي ساعة... أنتِ الوحيدة التي تستطيعين...»

انقطع الاتصال فجأة، مع هبوب رياحٍ شرقيةٍ لفحت وجهها الناعم، حاملةً رائحة القمامة المنتشرة في كل مكان مما أجبرها على إغلاق النافذة، وفي الأفق، كانت أبواق السيارات العالقة في تقاطع مزدحم تنافس نباح كلاب الضواحي، والمشهد بأكمله عبارةٌ عن مخاض صباحٍ سيئ ينتظر أن تُشرق فيه الشمس وتنهي لعنة الضباب الثقيل الذي لا يفارق المدينة الكئيبة.

لم تُتح المحققة للسائق الذي حاول استراق النظر عدة مراتٍ عبر المرآة ترك أيّ مجالٍ للتحدث معها، بل ظلت أعصابها مشدودة وهي تشبك أصابع يديها بتوتر واضح.

- تهمل عندك قليلاً!

صاحت فجأةً به بعد مشاهدتها لافتة إحدى الصيدليات على يمين الطريق، لتنزل على الفور طالبةً منه الانتظار ريثما تحضر دواءها. غابت لبرهة قبل أن تعود وهي تدفع داخل جيب معطفها الرسمي السميك كيساً أبيضَ، وعلى وجهها علامات الرضا الذي يؤكد أنها حصلت على عبوةٍ جديدةٍ من جرعتها.

أقلعت السيارة مجدداً ودخلت منتصف المدينة إلى أن وصلت بمحاذاة الزقاق المطلوب، حيث تجمعت بعض سيارات دوريات رجال الشرطة وسيارة إسعاف. ما أن نزلت وتخطت الرصيف حتى عادت أنفاسها المتسارعة وأصابعها المرتعشة للهدوء، وكانت خطواتها الثابتة تقودها وهي تشاهد الحشد المتجمع حول الضحية وبينهم زياد، لكن شعوراً غريباً وخز قلبها كأنها زارت المكان في السابق، في طفولتها أو مجرد زقاق يتشابه بالحزن والبرودة مع أزقةٍ أخرى لا تعد ولا تحصى في هذه المدينة الثكلى، سارت نحو عناصر المركز المنهمكين بالبحث وتجميع الأدلة وإعادة الناس عن الشرفات إلى الداخل، وهم يصيحون بأعلى صوتهم ويحجبون التصوير تحت طائلة المسؤولية، ثم بدأت تشمّ رائحة الدماء اللاذعة التي اخترقت أنفها قبل أن ترى الجثة.

شاهدت الطفلة ممددةً على الأرض الباردة، جسدها الصغير مُشرَّحٌ بطريقة لا يمكن استيعاب قسوتها، والبطن مفتوح مثل جيبٍ مهترئ، يمكن أن ترى الأعضاء الداخلية الصغيرة بارزةً ومنظفة، وكأنه تم تصفيتها من الدماء ثم مسحها وتلميعها بعناية، أما الخدود فقد نُزعت عن عظامها، تاركةً تجويفين مظلمين يحدقان في الفراغ، وعلى ذراعها اليسرى، كانت تلك العلامة المعتادة، دائرة تحيط

ART_OF_BOOK

بثلاث نقاط كعيون شيطان وقد صنعت هذه الحروق عن طريق أداةٍ مخصصةٍ لعمل دنيء كهذا.

- أعطني ملقطاً.

طلبت من زياد المنهمك بتدوين بعض المعلومات عن الأدلة الموصوفة أمامه، حيث التف على الفور ورحب بها معتذراً على إحضارها قبل أن يخرج من جيبه الملقط الفضي الصغير، لم يكن مساعدها قد انتبه لوجود انتفاخ غريب داخل أحد جراحها العديدة في فخذها. انحنت منى فوق جسد الطفلة المشوه متبوعة بغريزتها كمحققة لامعة، لتنتزع من جرح تم فتحه وإعادة خياطته بعض الأوراق المحشورة التي لُوثت بالدماء. كانت تسحبها ورقةً تلو الأخرى وبحرصٍ بالغ، وتجمعها داخل كيسٍ صغيرٍ قبل وضعها مع بقية الأدلة الأخرى، ظهر على إحدى تلك الأوراق الخطوط ذواتها المرسومة بخط اليد، وفي الحال نظرت صوب زياد الذي فهم قصدها وأنها الرسومات المقطعة ذواتها لوجه الطفلة التي تشبهها بشكلٍ مريب، مع تاريخٍ مرفقٍ على ورقة ثانية كُتب على طرفها بخطٍّ دقيقٍ: ١٩٨٢.

- «إنه العام ذاته...»

همست قبل أن يقاطعها زياد بكلماتٍ متوترة وهو يشير إلى

ART_OF_BOOK

التقارير الخاصة بمستشفى النور التي يستخدمها القاتل لربط الضحايا بذكريات المحققة.

- الضحيتان لهما العمر نفسه، والتاريخ المرفق نفسه!

هزت منى رأسها محاولةً طرد الفكرة، ثم أخرجت الصورة التي التقطها سيف للجثة الأولى حيث لا تزال تحملها، وشاهدت الدماء التي اختفت من وجه المتهم الرجل المشرد الميت، دون أن تتمكن من الربط بين الجثتين.

بدأ رجال الشرطة بالمغادرة، بينما تقدم ممرضان لأخذ الجثة لإعادة تشريحها ومعرفة وقت وأسباب وفاتها كعادة أي تحقيق آخر قبل تسليمها لعائلتها المنكوبة.

- هناك شيء آخر!

انحنى زياد ثم رفع جسد الطفلة بعض الشيء، بعد أن لاحظ طرف خيطٍ أسودَ مربوطٍ ومعقودٍ كما يبدو أسفل ظهرها، وتتبع مساره حتى انتهى طرفه بورقةٍ ملفوفةٍ، وما أن فتحها المحقق حتى رأى الاسم المنقوش عليها: «ممدوح».

- إنه الطبيب!

قال لمنى التي جمدت ملامحها تماماً قبل أن تعود من شرودها وتشير للممرضين بمتابعة عملهما، لقد بدأت أفكارها المتشعبة

تنضح كما يبدو باستنتاج جديد. ربطت الطبيب مجدداً بالتقارير القديمة المتعلقة باختفاء الأطفال.

- ألم ينتحر؟

- أيعقل ذلك؟!

- يجب علينا التثبّت، ربما زوّر وفاته حتى لا يتمكن أحدٌ من تعقبه.

- إنه أحد الاحتمالات أيضاً، دعينا نعدْ للمركز ونحاول مطابقة الخطوط.

كان الجو مشحوناً عندما أنهى المحققان حديثهما، إلى أن صدح صوتٌ على حين غرة، إنه هو، صوت سيف جاء من خلفهما. كان صاخباً بينما يتقدم ووقع خطواته الثقيلة العالية يمتزج مع فوضى المكان، وعلى الفور استدارت منى نحوه وهي متفاجئة من سرعة لحاقه بها وقدرته المبهمة على تقصي مكانها.

- إنها طفلة أيضاً؟

قال سيف الذي وصل للتو حاملاً مذكرته الصغيرة لتدوين الأخبار الجديدة قبل أن يشتمّ الصحفيون الآخرون أخبار الحادثة ويصلوا تباعاً إلى الموقع.

- من الذي أطلعك عن المكان؟!

قالت المحققة تحت وقع الصدمة بعد رؤيتها لسيف، لكنها لم تثر الكثير من الجلبة حيث لم تشأ أن يعلم أحدٌ اقتحامها غير الشرعي للمستشفى المغلق.

- لا يمكن إخفاء مكان جريمة هذه الأيام فالناس خائفون، ألا تعتقدين ذلك؟

لم تعجب كلماته زميلها زياد الذي رمقه بنظرةٍ حادة وهو يهم بالمغادرة وتركه رفقتها، الأخيرة التي مررت أصابعها فوق جراح الجثة الصغيرة وهي تتفحص ندوبها المقززة، وهي تتابع الممرضين اللذين رفعا الضحية ووضعاها داخل الكيس الجلدي الأسود، لنقلها إلى المشرحة.

- إنه يعيد تمثيل جرائمه، أليس كذلك؟

أعادت كلماته المحققة من شرودها، حيث استدارت نحوه دون أن تبوح بما يجول في خاطرها، كانت تتقصد تجاهله ورفض يد العون التي يصر على تقديمها.

- أوشكت على الاقتناع بأنه القاتل ذاته!

قال دون أي رد أيضاً من منى التي تجاوزته وانطلقت صوب السيارة حيث كان ينتظرها زياد للمغادرة، ليظل سيف واقفاً كالجدار خلفهما، وهو يعاين خطوات المحققة السريعة والمترنحة، ويشاهد

الضحية الموضوعة فوق الحمالة الحديدية التي يجرها الممرضان، بينما لمح في الأعلى على مسافة طابقين طفلاً يطل من شرفة منزله ونظرات الخوف تعلو وجهه، قبل أن تمتد يدٌ من خلفه وتسحبه للداخل بقوة.

انطلقت السيارة بسرعة وخلفها سيارة دورية أخرى بينما بقيت سيارتان يعاين بعض أفرادهما المنطقة ويبحثون عن كاميرات محيطة على أمل إيجاد دليلٍ يوقع المجرم، بينما انطلق آخرون لوضع شريطٍ يمنع اقتحام المكان والعبث بمسرح الجريمة، ليغادر سيف محبطاً بعد تنحيته من أحد رجال الشرطة ويتجه صوب الشارع حيث راح يسير على غير هدىً، بعد أن أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها مثل قطارٍ بخاريٍّ مليئاً بالأفكار، إلى أن غاب وسط المارة في الجهة المقابلة للشارع.

لم تمضِ دقائق حتى وصل المحققان إلى المركز، حيث وقعت أعينهما على بعض الصحفيين على البوابة الرئيسة الذين تجمهروا للتعبير عن غضبهم لتكتّم الشرطة على ما يجري، لذا ومتجاهلةً ضجيج الحشد الفضولي الذين انهالوا عليها بموجةٍ مربكةٍ من الأسئلة، عبرت منى للداخل دون أن تنصاع لِكَمِّ الاستفزازات المطروحة في الخارج. تعرف جيداً بعضهم، ليسوا جميعهم يهتمون فعلاً بالحوادث المؤسفة، بل هناك أفراد بينهم يتسابقون ويلعقون

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الأحذية لتلميع صفحاتهم واقتناص أي إشاعة صحيحة أو خاطئة تصنع الحدث، على أمل أن تُكتب قصتهم في الصفحة الأولى من الصحيفة التي باعوها أرواحهم قبل أن تدفع لهم ثمنها بخساً.

- لا يمكن أن يظل هؤلاء في الخارج، أرسلوهم بعيداً!

صرخ مدير المركز وهو يفتح مكتبه المقابل لمكتب المحققة بعد أن لمح الجمع الغفير للصحفيين على الكاميرات، بعد أن انتشرت إشاعة عودة القاتل كالنار في الهشيم بين الجميع. كان وجهه متجهماً حاداً. عادت الانتقادات اللاذعة للظهور لتنهال عليه بعد أن فشل حتى الآن في كشف ملابسات الجرائم السابقة.

لم تهتم المحققة التي انسحبت ودخلت مكتبها رفقة زياد لموجة الغضب المتفجرة في الخارج، وهي تسمع خطوات زملائها الذين انطلقوا صوب الباب الرئيس، وعلى نقيض ذلك تأففت هي الأخرى من كم القلق والتوتر الذي ستجلبه هذه الجرائم الجديدة، إنها تعلم أن المسؤولية الواقعة على عاتقها أصبحت أكبر بعد أن أصرت لسنوات على تحقيق العدالة للضحايا السابقين دون أن تتمكن من الوصول إلى نتيجة تبرد بها دماءهم الغاضبة تحت التراب، وقد علقت الآن بين مشاعر الحزن المتصاعدة في بحثها عن

ART_OF_BOOK

شقيقها المفقود، وبين توترها الآتي واستنفارها للإمساك بالمجرم اللعين الطليق.

- علينا أن نبلغه بالدليل الجديد.

قال زياد وهو يشاهد شرودها بينما تسير ذهاباً وإياباً قبالة النافذة وتستطلع الحشد في الخارج، مع صراخٍ شديدٍ غاضب لبعض أفراد المركز الذين رفضوا الإدلاء بأي تصريح للصحفيين، أو السماح لهم بالاستمرار بالبقاء.

- سأفعل ذلك، لكن ليس الآن، عليّ التحقق قبل أن أبلغه شكوكي، لا أريد مطاردة شبح.

أجابته ثم استدارت صوبه وهي تخرج حبةً من المهدئ، وتعود لتستشعر بعض الألم في إصبعها دون أن تعلم سببه.

- أعلم أهمية هذه الجرائم بالنسبة لكِ، وإلا لما تسرعت في إخبارك، رغم معرفتي بحاجتكِ أيضاً لبعض الراحة.

- لا تشغل بالك، بجميع الأحوال لن أرتاح وأنا أشعر بأن القاتل طليقٌ، يعرفني جيداً ويوجه رسائله بشكلٍ واضح نحوي، كما لن أفصح حاليّاً عن أي معلوماتٍ جديدة، وأنتَ أيضاً حاول التكتم على الأدلة الجديدة ولو مؤقتاً.

- هل تعتقدين بوجود خائن بيننا؟!

- لا أعلم لكن ظهور قصاصات الصور وتواريخها ليس عن عبث،

ART_OF_BOOK

«القاتل اللعين يحاول التلاعب بي

حسنًا إذاً لنرَ من سينتصر»

ART_OF_BOOK

كانت كلماتها دليلاً على التشابه الكبير بينها وبين تلك الرسومات المقطعة، ودرايته الواضحة بتاريخ ولادتها، وأغلب شكوكها الحالية بالاشتراك مع زياد تدور حول الدكتور ممدوح الذي يرجح أن يكون هو القاتل، لكن لا أثر على وجوده مطلقاً، لقد عاش كل وقته كما يبدو داخل أروقة المستشفى فلا يوجد عنوان مرفق ضمن ملفه يشير إلى مكان ولادته أو منزله، كل ما أرفق بالملف هو شهادة وفاة تبدو حقيقيةً للغاية.

رن هاتف مكتبها، فشعرت بشيءٍ من التوتر يتسرب إلى جسدها المنهك وهي لا تزال تعيد ربط خيوط أفكارها. كان الصوت على الطرف الآخر حادّاً ومعروفاً، إنه صوت العقيد أحمد، جاء صارماً كعادته. طلب منها أن تأتي إلى مكتبه لإخباره بآخر المعطيات المتعلقة بالتحقيق ثم أغلق السماعة. نظرت منى إلى الهاتف لبعض اللحظات قبل أن تعيد السماعة مكانها مجدداً بيدٍ ترتعش قليلًا، ثم مدت يدها إلى الزجاجة الصغيرة التي تحتوي على الحبوب المهدئة، وأخذت حبةً أخرى.

- إنه يريدك؟

- نعم، أنا ذاهبة.

خرجت وهي تعلم نمط الكلام المتوقع لذا بدأت كما يبدو بالتفكير في إجاباتٍ مسبقة، كل خطوة تخطوها تفضح إدمانها وهي تسير بشرود ووهنٍ واضح. إن الوقت الذي قضته في تعاطي المسكنات بدأ يترك آثاراً واضحة عليها. ومع ذلك، كانت تحاول بشتى الطرق ألا يظهر ذلك على وجهها، خاصة أمام العقيد أحمد.

- ادخلي.

قال بعد أن قرعت بابه ثم سحبت المقبض للأسفل وولجت للداخل. كان يجلس خلف مكتبه. الملفات متناثرة أمامه وهو مشغولٌ بقراءتها، لكن مع وصول المحققة رفع رأسه عن أحد المستندات للحظة واحدة ثم أغلقه. نظرت منى إلى وجهه، كان قاسياً، لا يظهر أي عاطفة.

- منى، يجب أن نكثف الجهود أكثر، إذا لم تستطيعي الوصول إلى القاتل في الوقت المحدد، فسأكون مضطرّاً لتنحيتك عن القضية. هذه القضية ستدمر سمعة مركزنا إن لم يتم حلها، هل تَعِين ذلك؟!

كلماته كانت واضحة وصارمة. لم يترك لها مجالاً للمراوغة أو تبرئة نفسها.

- إنني أعمل بأقصى ما أستطيع ولا أوفر جهداً للإمساك بالقاتل يا سيدي. التحقيقات تتعقد أكثر يوماً بعد يوم، والضغوط تتزايد،

وأنت تعلم أن هناك أمورًا تتخطى قدرتنا. شوارع كاملة في المدينة تحتاج إعادة تأهيل، الفوضى والسرقة منتشرتان في أماكن عديدة، ولا يمكننا جر الجميع إلى السجن بناءً على مكان سكنهم.

أمسك العقيد أحمد قلماً كان يحركه بين يديه. رفع نظره إليها، ولم تُخفِ عيناه الشك الذي ظهر في محياه.

- وأنا أكرر كلامي: إذا كنتِ تشعرين بأنكِ غير قادرة على التحمل، فهناك دائماً من يستعد لاستلام قضية كهذه. أعطيتك ثقتي منذ فترةٍ طويلة، وهذه المرة لن أقبل الأعذار !.

على الرغم من الغضب الذي كان يغلي في داخلها، فضلت منى أن تتماسك. فقد كانت تعرف جيداً أن المواجهة معه الآن لن تفيد بشيء. كانت تُدرك أن العقيد أحمد كان يراقبها عن كثب، وأن حالتها النفسية كانت واضحةً له، والحبوب التي تتعاطاها لم تخفِ آثار التوتر على ملامح وجهها.

- سأكثف العمل، سيدي. أنا على وشك إيجاد رابط مهم.

قالت بصوتٍ حادٍّ يؤكد عزيمتها، ولكنها أصرت على كتم الدليل الأخير الذي وجدته في الضحية الأخيرة.

التفت العقيد إلى الملفات في إشارةٍ منه أن اللقاء انتهى، غادرت المحققة المكتب دون أن تلتفت خلفها، لكنها شعرت بأن الحمل

ART_OF_BOOK

أصبح أكثر ثقلاً. الآن عليها التفكير بالخطوة التالية التي يجب أن تتخذها.

عادت إلى مكتبها ودخلت لتجد زياد قد غادر، كما كان متوقعًا. لكن المفاجأة كانت غير متوقعة أو مستحبة، كان سيف يجلس على الكرسي الجلدي الكبير أمام مكتبها، مصرّاً على التدخل في القضية ملزماً نفسه بأن يكون عوناً للمحققة، وتحت وقع نظراتها الغاضبة، كان سيف على العكس يبادلها ابتسامة هادئة. كان يدرك حجم التعب الذي يملأ جسدها، وهو يتابعها بصمت، في انتظار اللحظة المناسبة حتى لا يشعرها بأنه ضيفٌ ثقيل.

- دخلت من دون إذن، كما أرى!

قالت بصوت متوتر وهي تجلس خلف المكتب.

- نعم صحيح.

أجابها بثقة، وهو يمني النفس بأن تتقبل وجوده، لذا تابع كلامه:

- جلبت لك شيئًا. أعلم أنكِ فقدت علبة المسكنات الخاصة بكِ حيث كنا.

تفاجأت من فعلته رغم غضبها لذا كانت ردة فعلها معه أقل تشنجاً وعصبية وأكثر هدوءاً نوعاً ما حتى أنها توقفت لحظة. أخذت نفساً ثم نظرت إلى العلبة الصغيرة في يده:

ART_OF_BOOK

- لم يكن عليك فعل ذلك.

- انتبهت إلى أنكِ كنتِ تحملين العلبة ذاتها، قبل أن تفقديها في المستشفى. ربما لم يتسنَّ لك الوقت لجلب أخرى.

حفظت كلماته جيداً، ربما كانت المرة الأولى التي تشعر فيها بأن هناك من يهتم، حتى لو أثارت تصرفاته ذعرها في بعض الأوقات، كان تعبيره عن تقديم المساعدة بسيطاً، رغم ذلك استطاع من خلاله أن يكسر جليدها الداخلي قليلاً. علم أنها في حالة نفسية سيئة وتحتاج لمساحة تستطيع فيها البوح وإفراغ ما تكتم من عذاب.

- لم يكن عليك إحضارها، بكل الأحوال شكراً يا سيف.

قالت دون أن تتمكن من إخفاء شعور الفوضى الذي كان مسيطراً.

- أنا هنا للمساعدة لا أكثر، أفهم جيدًا ما تمرين به.

كانت عيناه ثابتتين على عينيها، كأنما كان يريد قراءة أفكارها.

- تعلمين جيداً أنني أيضاً ناجٍ سابق لذا فإنني مثلك أريد القصاص من هذا المجرم بأقرب وقت.

لم يكن هناك تهديد في نبرة صوته، بل أصر على إيصال الحقيقة بتجرد وجعلها تتسلل عبر كلماته ببطء، مشحونةً ربما بمشاعرَ من الغضب المكبوت الذي لا يريد إظهاره. كان لديه القدرة على إظهار تعاطفه بطريقة تخفف قلقها خاصة بعد عودتها منزعجة من مكتب قائدها.

ART_OF_BOOK

لحظاتٌ من الصمت التام. فاصلٌ من استجماع الأفكار، وكل منهما يفسر الوضع في عقله بأبعاد مختلفة. شعرت منى بالتعب، بالضعف.

- لا تظن أنك تعرف كل شيء، إنني أتعامل مع القضية بطريقتي الخاصة، لا أعلم لماذا أسمح لك أساساً بالتدخل.

قالت وهي تغص بكلماتها، لا تريد إزعاجه لكنها أيضاً لا تستطيع أن تأتمن وجوده قربها، أو حتى محاولة التعامل معه بمهنية، ربما كان ذلك من آثار إدمانها الذي لا تستطيع الخلاص منه، حالياً على الأقل.

حملت منى حقيبتها ونهضت واقفة، عازمةً على المغادرة إلى المشرحة لمتابعة تحقيقاتها، وقد أغلقت الباب مجددًا في وجه سيف لفتح أي حديث آخر، الأخير الذي كان يحاول دون كللٍ التقرب منها وعرض المساعدة، ثم وبوجه جامد ونبرة حازمة، أخبرته بضرورة خروجه من المكتب كونها مغادرة، ثم استدارت متجهة للخارج وهو خلفها حيث تجاوزته بعد إغلاقها المكتب وسارت نحو سيارتها.

أدارت المحرك دون أن تنتظر زميلها الذي يقود بالعادة كونها تشعر أنها غير مؤهلة للقيادة، أو ربما تخشى من التأثير المتراكم

ART_OF_BOOK

لتلك المسكنات أن يفقدها صوابها. انسابت السيارة بين الشوارع المزدحمة، وهي تشاهد جموع الناس على المواقف العامة وعلى الأرصفة، وكانت شاردة الذهن فعلاً حينما رن هاتفها المحمول، فقطع صوته القوي أفكارها وأجفل كيانها. ألقت نظرة سريعة على الشاشة، ثم أجابت:

- نعم؟!

جاءها صوت الممرضة المسؤولة عن رعاية والدها مضطرباً بعض الشيء.

- آسفةٌ على الإزعاج، لكن والدك ليس بخير. يمتنع عن تناول الطعام والدواء منذ الصباح، لذا كان لزاماً عليَّ أن أخبرك.

تجمدت أنفاسها لثوانٍ، وشعرت بوخزةٍ شديدة في قلبها كأن يداً خفيةً امتدت لتعصره، فركنت السيارة على جانب الطريق، وعقلها يتأرجح بين القلق على والدها وواجبها الذي يوجب عليها متابعة التحقيق في ظل الضغط الشديد عليها من العقيد. ترددت قليلاً وهي تنظر عبر الزجاج الأمامي، ثم زفرت بضيق بينما تحكم قبضتها على المقود.

- حسناً، أنا قادمة.

بدلت وجهتها وانعطفت بسرعة نحو المنزل، ولم تكن تعلم

إن كانت قيادتها السريعة المتهورة بسبب العجلة أم بسبب التوتر الفجائي الذي احتل جسدها بالكامل.

ما أن وصلت حتى ركنت السيارة، وترجلت بخطوات سريعة إلى الداخل. حيث وقعت عيناها على الممرضة التي كانت تنتظرها عند باب غرفة والدها، الممرضة التي لم تكن تراها إلا نادرًا بسبب انشغالها الدائم بالعمل.

- ماذا حدث؟ وكيف حاله؟

سألتها منى بقلق وهي تلج غرفته وتستطلع وضعه، ثم تعود لتتجه نحو المطبخ، حيث كان الحديث هناك أكثر هدوءاً بعيداً عن والدها.

قالت الممرضة العشرينية متنهدةً، وقد تجلى القلق على سحنتها بشكل واضح:

- حاولت تقديم الطعام له منذ الصباح حتى يتمكن من تناول علاجه، لكنه أبى أن يفتح فمه، وجربت التحايل عليه وإذابة الدواء في كأس من الماء لكنه رفض ذلك أيضاً.

شعرت منى بالذنب يتسلل إليها. ربما كان السبب في حالته هي جرعة الغضب التي أفرغتها عليه منذ فترة قريبة، لطالما كان أباً رائعاً وعطوفاً لها، رغم ذلك لا تستطيع تبرئته من الإرث الذي تركه لها،

من العذاب واللوعة اللذين حطما حياتها. وقفت منى لحظة، ثم استندت بيدها إلى الطاولة، تحاول استجماع شتات أفكارها قبل أن تتجه لرؤيته مجدداً.

دخلت منى غرفة والدها بخطوات مترددة، قلبها مثقل بالقلق وهي تتأمل وجهه الشاحب. لم يكن بحاجة إلى الكلام لتدرك حالته؛ عيونه المتسعة كانت كافية لتكشف عن خوف غريب، خوف لم تألفه فيه من قبل. لم تكد تصل قبالته حتى انتبهت أن نظراته كانت مثبتة على الصورة ذاتها المعلقة على الجدار أمامه، الصورة الرمزية للطفلتين اللتين تتقاسمان الحضن مع امرأةٍ غريبة أعادت عذابها لنقطة البداية.

تمالكت نفسها للحظة ثم تقدمت منه ببطء، جلست عند حافة سريره وهمست بلطف:

- أبي، أنا أعتذر عن غضبي وصراخي عليك، لا أريد التحدث بالأمر، لذا أرجوك أن تتناول الدواء.

لم يستجب لكلماتها المنمقة المجبرة هي على بوحها، وهو يعلم أنها تكتم سعار غضبها للتخفيف عنه، وتشبثت عيناه بالصورة وكأنها تفصله عن الواقع وتحمله إلى عالم آخر. زفرت منى بضيق ونظرت إلى الممرضة التي وقفت على مقربة، تراقب المشهد بصمت.

- إن استمر على هذا الحال، فسنأخذه إلى المستشفى. لا يمكننا تركه هكذا.

قبل أن تتمكن الممرضة من الرد، بدأ والدها بإصدار أنين خافت. تحركت يداه المرتعشتان قليلاً، وكأنه يريد قول شيء لكنه عاجز عن ذلك. بعد لحظات، تغيرت تعابيره وبدا أنه يتجاوب مجدداً ويفتح فمه كأنه يريد قبول الطعام أخيراً.

نظرت إليه منى غير قادرةٍ على فهم سبب تصرفه المفاجئ. كان الأمر غريباً لكن طالما أنه عاد إلى طبيعته، فقد فضَّلت المحققة ألا تغوص في التساؤلات أكثر.

لاحقاً وبينما كانت منشغلةً بمراقبة الممرضة وهي تقدم الطعام لوالدها، رن هاتفها مجدداً. نظرت إلى الشاشة فرأت اسم زميلها، زياد.

- أهلاً زياد ماذا تريد؟

- أردت إخبارك أنني مضطر للتغيب عن العمل غداً، أريد السفر إلى القرية لرؤية والدتي المريضة.

- هل هي بخير؟

- تعرضت لوعكة مجدداً بعد جراحتها الأخيرة.

- أفهمك تماماً، لا تقلق يمكنك الذهاب.

استمر حديثها لدقائق قصيرة، قبل أن تنهي المكالمة وتعود إلى المطبخ، حيث كانت الممرضة، لتشاركها منى وللمرة الأولى منذ وقتٍ طويل غسيل الأطباق، كأنها تحاول تعويض جزء من انشغالها المستمر بالعمل.

ضحكات خفيفة تبادلتها مع الممرضة أثناء الحديث عن أمور عادية، أشياء نسائية لم تتطرق إليها منذ زمن. شعرت للحظات وكأنها تستعيد شيئاً من شخصيتها وحقيقتها التي فقدتها وسط الجثث والتحقيقات.

مع انتهاء اليوم، غادرت الممرضة تاركةً منى تجلس وحدها بهدوء، تفكر في عيني والدها الخائفتين، وتبدل حالته واستجابته بعد ذكرها للمستشفى.

- لا يمكن أن يخفي سرّاً آخر أيضاً!

همست وانطلقت إلى غرفتها مثقلةً بالأفكار، تترنح بالذكريات وتغتالها التحليلات، ثم ألقت بجسدها المنهك فوق السرير، تاركةً عقلها يواصل دوّامة التفكير. بجانبها، كان دفتر الملاحظات القديم الخاص بوالدتها، صفحاته المهترئة تحمل أسرارًا لم تُفكَّ شيفراتها بعد. ولم تعلم لماذا، لكن فكرة البحث في أغراض والدتها عادت

لتطفو في رأسها. خطر في ذهنها أنها قد تجد دليلاً يقودها إلى شقيقها التوءم المختطف منذ ولادته.

للحظة راودتها الرغبة في النهوض والبحث، لكن إرهاقها الثقيل شدها بحزم إلى الفراش. شعرت بوهن قوي وكأن النعاس هجم عليها بغتة فأغلقت عينيها ببطء، لكن عقلها المتشعب بالوساوس لم يهدأ، لذا لم يمضِ وقت طويل على نومها قبل أن تجتاحها الكوابيس مجدداً.

هذه المرة وجدت نفسها واقفةً وسط ممر طويل، جدرانه متهالكة، أنواره خافتة تهتز كأنها على وشك الانطفاء. الهواء كان خانقاً، محملاً برائحة رطوبة كريهة ومزيج من العفن والدم القديم. بانت لها أروقة مستشفى النور المهجور، ذاك المكان الذي لطالما ارتبط بالمجهول والمخاوف المدفونة في عقلها الباطن.

صوت خطواتٍ يقترب ببطء، صداها الثقيل يتردد في المكان وكأنه يطاردها. حاولت الحركة، لكن قدميها كانتا متصلبتين، كأنهما مغروستان في أرض المستشفى. شعرت بأنفاسها تتسارع، وبعَرَقها البارد ينساب على ظهرها. التفتت حولها، فوجدت جدران الممر مغطاة بآلاف الصور، صورها هي.

كانت معلقةً على الجدران بشكلٍ مخيف، تعكس مراحل مختلفة من حياتها، منذ طفولتها حتى الآن. بعضها كان ممزقًا، وبعضها الآخر مشوهًا بألوان سوداء وكأن أحداً حاول طمس ملامحها. أما الأرضية، فكانت مغطاة أيضاً بقصاصاتٍ متناثرة تحتها تعيد حياكة تفاصيل وجهها، كأنها ألقيت هناك لإثارة هلعها أكثر. حاولت رفع إحداها، لكنها شعرت برعشةٍ شديدةٍ تسري في جسدها خاصةً عندما رأت أن جميع العيون المقطوعة في الصور تحدق بها مباشرة.

ثم جاء الصوت. صوت السكاكين وهي تُشحذ من بعيد، ذلك الصوت المعدني القاسي الذي شق الصمت بعنفٍ بالغ وأصم أذنيها من وقعه. لم يكن هناك أحد أمامها، لكنها علمت بأن شخصاً ما بقربها ربما خلفها. تسارعت أنفاسها بشكلٍ هستيري، وبدأ جسدها ينتفض رغماً عنها. لم يكن مجرد كابوس، كان أقرب لحقيقة خالصة.

من زاوية الرؤية المظلمة على يمينها، برزت يدٌ امتدت نحوها ثم أظهرت ملامح صاحبها، إنها يد أمها تحمل مذكرةً قديمة أوراقها مهترئة. حروفها مكتوبةٌ بخط مذعورٍ متشنج، وقد نُقشت تحت وطأة الخوف أو العجلة. حاولت منى قراءة الكلمات، لكن الحروف تموجت أمام عينيها، وكأن شيئاً ما يمنعها من قراءة سطورها.

فجأة، سمعت صرخة طفل رضيع، كانت حادة متكررة مليئة بالهلع والاستغاثة. كان الصوت يقترب أكثر، يخترق أذنيها مباشرة، مع ضحكات لأطفال آخرين يركضون خلفه، وهي ثابتة لا تستطيع الحراك، كان صراخه غريباً وكأنما ينبع من داخل أذنيها. تسارعت أنفاسها أكثر وأكثر حتى كاد ينفجر صدرها. شعرت بالعرق يبلل جبهتها. قلبها أوشك أن يخرج من مكانه.

أرادت الهروب، أرادت الصراخ، لكن جسدها ظل مقيداً أسيراً لمخاوفها، وكأنها محاصرةٌ بلا سبيلٍ للخروج، ومجدداً، شعرت بيد ثقيلة تُطبق على كتفها من الخلف، هذه المرة كانت لمستها باردةً وثقيلة، وغير مستحبة، أو غير بشرية.

وفي اللحظة التي حاولت فيها وبكل جنونها أن تستدير ببطء، استيقظت. شهقت بقوة، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. جسدها بالفعل مبللٌ بالعرق، ويداها ترتجفان، كل جزء من كيانها يؤلمها كما لو أنها خاضت معركةً للخلاص. لم يكن مجرد كابوس هذه المرة لقد كان مختلفاً، أكثر واقعية وإرهاقاً كأنها كانت هناك فعلاً.

حدقت في السقف للحظات. الوقت ما زال مبكراً على النهوض، وقلبها لا يزال يخفق بجنون. لا تعلم إن كان حلماً فقط، أم أن هناك شيئاً في الماضي يريد أن يظهر للعلن ويفضح ما حدث.

***

ART_OF_BOOK

لم يكن زياد قد غادر المدينة، والحقيقة أنه لم يستطع تجاهل الشعور بأن هناك شيئًا مريباً يجري خاصةً بما يتعلق بالمحققة التي ليست بحالٍ يسمح لها باتخاذ قرارات صائبة، ورغم حداثة عهده في قسم الشرطة إلا أن فطنته الكبيرة أخذت أفكاره بعيداً للبحث عن الجزء الناقص في هذه الأحجية، لذا كان قراره باكتشاف بعض الدلائل الإضافية ربما حلًّا خطيراً لكنه ضروري. لم يخبر أحداً على الإطلاق ولم يكن ينوي ذلك، فبعض الحقائق لا تُكشف إلا في الظل أثناء سبر غموضها ودراستها برؤية أكثر شكّاً وشمولية.

أنهى فطوره ثم خرج من منزله وأوقف سيارة أجرة وأشار له بالانطلاق، وحيث الصباح الضبابي يبتلع الأفق داخل الأزقة الموحلة، بطرقاتها شبه الخاوية مع بضع سيارات تمر مسرعة كأشباح عابرة، كان الهواء يعبر من نافذة السيارة نحو وجهه مشبعاً برائحة المطر والقهامة معاً. الرائحة تثير الاشمئزاز، والمارة القلائل يتحركون بعجلة ملطخين بالهموم بوجوه مكفهرة حانقة.

- تفضل.

قال مقتضباً ودفع الأجرة للسائق ونزل متجهاً إلى المكان ذاته حيث يقبع المستشفى القديم، وسار عبر الأرصفة المتسخة وهو يحاول تفادي الانزلاق في الطين والقذارة، إلى أن وصل أخيراً إلى

@ART_OF_BOOK

المكان المنشود. ظل واقفاً متردداً من فكرة الدخول أمام مشهد البناء المتداعي المخيف. كان المكان أقرب لمتحف للموت، منه ابتدأت الحياة وفيه انتهت. النوافذ المحطمة، الجدران تنزف تشققات لا تحصى، والباب موصد لم يتم فتحه منذ فترةٍ طويلة. أخذ نفساً عميقاً، ثم بدأ التقدم نحو النافذة الجانبية المكسورة، حيث لا يستطيع البقاء في الطريق والعيون الشكاكة تتلقفه من كل صوب.

حذراً من أن يصاب بالزجاج المهشم ومذعوراً من الفكرة أصلاً اجتاز حافة النافذة المهشمة إلى الداخل، حيث التهمته العتمة على الفور. لم يكفِ الضوء الخافت المتسلل من شقوق النوافذ المغبرة لتوضيح الرؤية أمامه وكشف ملامح المكان، لم يكن كافياً لكشف ما يختبئ في الزوايا المظلمة. إذاً فقد أشعل ضوء هاتفه وراح يتقدم ببطء، ويراقب كل شيء حوله، وتجول في رأسه فكرة سوداوية عن الذي كسر تلك النافذة، والذي قد يكون اقتحم فعلاً المكان قبله، يمكن الإحساس بتوتره الذي يزداد مع كل خطوة.

بعد أن تخطى بعض الغرف المفتوحة، لاحظ آثار أقدام في الغبار.

«إنها حديثة»

فكر للحظة، ثم سحب مسدسه عن خصره، ربما جاء شخص إلى هنا بالفعل، وربما لا يزال. ارتفع الأدرينالين في دمه أكثر. عيناه

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

تتفحصان الرواق أمامه وفي كافة الاتجاهات، ثم تابع التقدم بحذر، متتبعًا الآثار التي قادته إلى ممر طويلٍ مظلم. أصوات خافتة ترددت من بعيد، سمع أو خُيل له سماعه لتلك الهمسات غير المفهومة القادمة ربما من الجدران، من الأرضية أو من الأعلى، لا يعلم تماماً ماهية مكانها.

ثم جاء صوت طقطقة خفيفة ظنها قادمةً من خلفه جعلته يستدير على وجه السرعة موجهاً سلاحه، لكن لم يكن هناك أحد. فقط المزيد من العتمة والصمت، فتابع مسيره إلى أن وجد سلالم تقود للأعلى وقد قرر التخلي عن خوفه والصعود، بعد أن تراءى له سماع حسيسٍ واضحٍ قادمٍ من الأعلى.

***

لا تعلم منى كيف غفت مجدداً بعد صراعها المرهِق في الحلم البغيض، يتملكها شعور بضيق النفس والقلق المفرط، وكأن اليد من كابوسها السابق تمسك بحلقها وتشد الخناق على أنفاسها حتى الآن. لم تستطع مغادرة سريرها. يداها ترتجفان، تزفر وتشهق بصعوبة وتجرب السعال لتفسح المجال للهواء للدخول لصدرها الجاف، محاولةً إبعاد صورة والدتها الميتة الحاضرة والهروب من

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

مشاعر الرعب التي تقض مضجعها، ظلت تسعل بقوة وكأن شيئاً عالقاً في حنجرتها يسد مجرى الهواء، لكنه بدأ يتحرك مفتعلاً ألماً لا يطاق ولا يحتمل، موحياً بأنها تتقيأ كتلة من المسامير الحادة أو الزجاج، لم تمضِ ثوانٍ حتى بدأ وجهها ينزف من كل مكان، وفاضت الدماء عبر عينيها وأنفها إلى أن بصقت كيساً أسود دموياً خشناً، ما أن سقط أمامها حتى انشق وخرجت منه قطع صغيرة من المرايا، عكست نظراتها المضطربة المذعورة.

صرخت على الفور، وانتفضت من سريرها وقد عمَّ الصمت أرجاء غرفتها. لا أثر للدماء ولا للمرايا، لا أثر للألم. كان كابوساً لعيناً آخر. نهضت فوراً وتوجهت إلى الحمام، وضعت وجهها تحت الماء البارد، تركته قليلاً كأنها تريد إطفاء النار التي أصابت أفكارها، ثم عادت إلى المطبخ وأعدّت كوباً كبيراً من القهوة، ثم جلست تحدق فيه بعد أن سكبته باحثةً عن انعكاسها بين تموجات السائل الداكن. ارتدت ملابسها واستعدت للخروج، أمسكت بحقيبتها وتحققت من أن سلاحها في مكانه المعتاد، ثم غادرت نحو المركز.

لكن فور دخولها، شعرت أن هناك شيئًا غير طبيعي يحدث. المكان يعجّ بالحركة، أصوات صياح مرتفع، ضباط يركضون نحو الخارج.

ART_OF_BOOK

أوقفت أحد أفراد الشرطة الخارجين، كان شاباً يدعى «رامي»، ملامحه سمراء خشنة، وعيناه تحملان الكثير من الجدية والصرامة.

- ما الذي يحدث؟

- وصل بيان يفيد بوجود صورة لمشتبه به، لقد سجلت كاميرا أحد المحال التجارية شكله الليلة الفائتة بعد أن ولج الزقاق حيث وقعت الجريمة الثانية، وكان يجرّ حقيبةً كبيرة.

- هل أرسلوا الصور؟

- لا، طلب منا العقيد التوجه وإبعاد الناس عن المنطقة على أمل أن نجد دليلاً ما هناك.

تجمدت ملامحها لثوانٍ وهي تفكر بالحقيبة، ثم شعرت بحماسٍ مفاجئ، ففي أغلب الجرائم السابقة لم يترك القاتل أي دليل يوقعه، وهذه أول مرة يظهر فيها خيط حقيقي في القضية.

لكن قبل أن تغرق في التحليل، علت أصوات أجهزة الاتصال اللاسلكية في المركز، جاء صوت أحدهم قائلاً:

- وحدة المراقبة، لدينا حركة داخل منزل مهجور في شارع النهضة المقابل للزقاق، المشتبه به قد يكون هناك!

لم يكن هناك وقت للتفكير. استدارت المحققة على الفور وأسرعت تهمُّ بالخروج مع باقي أفراد المركز.

***

ART_OF_BOOK

كانت أنفاس زياد بطيئة، محكومةً بالهدوء القسري الذي فرضه على نفسه. نظر حوله، الظلام يحيط بكل شيء تقريباً مع تسلل خفيف للضوء عبر النوافذ القذرة، وشعورٌ غريبٌ يزحف أسفل جلده أشبه بالقشعريرة المتواترة، وعيناه لا تنفكان تتابعان رصد الغرف الواحدة تلو الأخرى، لكنه ظل يمشي نحو إحدى الغرف التي شعر بوجود خطب ما فيها، رغم أنه يتحسس وجود كيانٍ يراقبه. ربما يكون شخصاً أو شبحاً.

وقف في منتصف الممر، استند إلى الحائط بهدوء، وأصغى. الصمت كان ثقيلاً، لكن وسط السكون، كان هناك صوت خافت كأنفاس محبوسة، أو حركة خفيفة بالكاد تُسمع. لم يكن وحيداً بالتأكيد. أدار رأسه ببطء، عيناه تراقبان كل زاوية بعناية، لكن لا وجود لأحد، ثم استمر بالتقدم بخطواتٍ حذرة، يده لا تزال تقبض بشدةٍ على سلاحه، وهو يمني النفس بأن لا يضطر لاستعماله.

في نهاية الممر، لمح باب تلك الغرفة مفتوحاً قليلاً، وأثر خطواتٍ واضحةٍ على الغبار، أسفله وحوله. مما دفع المحقق لالتقاط بعض الصور بعد أن خيل له أن شخصاً مر عبره للتو. لذا كان عليه التحرك بانتباه بالغ، حيث دفع الباب بأطراف أصابعه، محاولاً ألا يحدث جلبة كبيرة، خاصة مع العتمة الخانقة داخله التي كانت أكثر كثافة.

@ART_OF_BOOK

ما أن دخل حتى صدح صدى قرقعة خفيفة في الخارج، مما دفعه للعودة أدراجه دون أن يتمكن من تفقد تلك الغرفة، فأخذ يتراجع وأنفاسه متقطعة وعيناه تسقطان مع سلاحه على أي حركة مريبة حوله.

***

ART_OF_BOOK

من يحفر في الذاكرة، عليه أن يتحمل طين الخيبة

لم تلحق أقدام المحققة قطع الباب الرئيس خلف بقية عناصر لمركز الذين خرجوا على عجل، حتى جاء الصوت شديداً خلفها، وقفها في مكانها:

- منى!

التفتت المحققة لتجد العقيد أحمد واقفًا عند المدخل، عيناه مصوبتان نحوها بحدة، وسحنته تحمل الكثير من الاستياء، دون أن تفهم سببه.

- لِمَ لا تجيبين على الهاتف؟ أتصل بك منذ حوالي ساعة!

شعرت بارتباك مفاجئ، أمسكت هاتفها بسرعة وعندما فحصته، فوجئت أنه كان موضوعاً على الوضع الصامت. ضغطت شفتها السفلى قليلاً للتعبير عن استيائها، وتذكرت أنها فعلت ذلك حتى تتمكن من النوم الليلة الماضية، ونسيت أن تعيده في الصباح.

- لم أنتبه يا سيدي، أعتقد أنني وضعته على الصامت دون قصد.

زمَّ العقيد أحمد شفتيه، نظر إليها بفتور، لا تعجبه تصرفات المحققة التي زادت على حدها، ثم أشار لها بيده للخارج حيث تحركت سيارات الشرطة مسرعة.

- آخر ما أحتاجه الآن هو ضابط لا يرد على هاتفه وقت

الطوارئ. انضمي إلى الفريق، أريد نتائج، أريد أدلة، وأريد إجابات واضحة هذه المرة!

كانت تعلم أن أي نقاشٍ معه تلك اللحظة سيكون بلا فائدة، ولن تصل إلى نتيجة بل على العكس سيزيد سخط قائدها عليها، لذا أومأت برأسها دلالة على فهمها، ثم التفت نحو الخارج مغادرة، بينما زياد في الجهة المقابلة يمر بتجربةٍ عصيبة من نوعٍ آخر.

***

غدا الصمت أكثر ثقلًا الآن، كما لو أن الجدران أنفسها تراقبه. وقف ساكناً، مسحت عيناه المكان بحثاً عن أي أثر أو حركةٍ مريبة، وفي اللحظة التي بدأ فيها بالتراجع، لمح بالفعل ما هو أقرب لطرف شخص، وربما خياله، لقد تحرك عند إحدى الزوايا البعيدة قرب السلالم، لكن لم يكن واضحاً بما يكفي ليعلم ماهيته.

- من هناك؟!

صاح دون استجابة من الشبح المتخفي، ربما يجرب مؤانسة نفسه وطرد الأفكار السيئة عن فكره، ولو أن شخصاً بالفعل كان يتابعه، يراقبه بصمت، فسيفيد صراخه بإبعاده أو محاولة مواجهته إن علم بأن المحقق قد كشف أمره، وتحت وطأة الخطر المحدق بالخيال الجبان

المختبئ علم زياد أنه لن يكشف نفسه بسهولة، ثم قرر الخروج من المستشفى بهدوء تجنباً لأي خطر قد يتعرض له، وعاد نحو السلالم بخطوات خفيفة وهو يضيء بمصباحه في كل ركن حوله، إلى أن وصل إلى الباب الرئيس، حيث التفت للخلف مرة أخيرة يعاين المكان المشؤوم، وبينما كان يهمّ بالمغادرة لاحظ أمراً جعله يتوقف لبرهة.

على الأرض، وسط الغبار المتراكم، شاهد هناك آثار أقدام أخرى لم تكن موجودةً حين دخل، لكنها كانت تتجه نحو الخارج.

- «لقد كان في الداخل منذ وصولي!».

فكر لثانية ثم انتفض راكضاً، فقفز عبر النافذة بسرعة شق على إثرها كف يده بشكل مؤلم، لكن لم يستوقفه ذلك عن الركض إلى الطريق ليستطلع وجود أي غريب في الطريق، وللأسف حجب الضباب القوي الرؤية عليه، وبدأ يتألم بشكل واضح وهو يراقب قطرات الدم الغزيرة المتساقطة عبر الجرح المفتوح، مما استدعى أن يخلع عنه سترته ويلفها فوق مكان الإصابة بشدة ويتابع المشي بعيداً عن المكان.

أوقف سيارة أجرة أخيراً بعد أن أنهكه التعب حيث سار على الطريق المقفرة عبر الشوارع الملعونة، ثم استعجل سائقها وبنبرة

حادة وغاضبة بالتوجه نحو منزله، الأخير الذي حين شاهد الدم التي تلطخه بشكل مريب استجاب لكلمات زياد.

على طول الطريق ظلت الأفكار تعبث في رأسه فما رآه في المستشفى القديم يكشف الستار عن تفاصيل جديدة وخطيرة، وبالتأكيد كان هناك شخصٍ ما يراقبه بدقة، يتتبعه دون أن يُكشف، والأسوأ من ذلك، ذلك الشعور العالق في ذهنه، فلم يكن المجهول مجرد متطفل، بل بدا وكأنه يقيم في الداخل، ربما يستخدم هذا المبنى المهجور لأعماله المشبوهة، أخذته الاحتمالات والتخيلات إلى أنه كشف خيطاً هامّاً في القضية.

عندما وصلت السيارة إلى عنوان منزله، نزل زياد ثم هرع صاحب التكسي مسرعاً دون أن يلتفت خلفه، ربما اعتقد أنه كان يُقل قاتلاً ما لدرجة أنه لم يجرؤ على سؤاله عن مصدر تلك الدماء الغزيرة التي تلطخه وماذا يخفي أسفل سترته.

لم يستطع زياد تحمل الألم، وما أن فتح الباب. حتى رمى سترته على الأرض وانطلق إلى حقيبته الإسعافية، أخذ الحقيبة ثم جلس على كرسيٍّ جلدي صغير ووضع مسدسه على الطاولة الخشبية البنية أمامه، وباشر بتطهير موضع الجرح الذي خف نزيفه بشكل واضح وقام بلفه بشاشٍ طبيٍّ وهو يسكب فوقه المزيد من المطهر.

@ART_OF_BOOK

ما أن فرغ من تضميد إصابته حتى ابتلع بعض حبوب المسكن لتخفيف ألمه، ثم ارتمى على إحدى الأرائك الواسعة الملونة، وهو يحاول أن يستعيد بعضَ تركيزه، ويعيد تفسير ما حصل في المستشفى. شعر وكأنه يدور في دائرة مغلقة دون أي مخرج واضح.

التقط هاتفه، خطر في ذهنه أن يتصل بزميلته لكنه تراجع، حيث سيُكشف أمره بما أنها تعلم أنه في إجازة، لذا بدأ بتصفح الصور التي التقطها لتلك الخطوات، حيث توقف عندها وبدأ يعاين شكلها. قام بتكبير الصورة ومحاولة معرفة نوع الحذاء، بيد أنه لاحظ جزئيةً غريبة، تتداخل مع الحذاء العريض آثار حذاءٍ آخر أصغر حجماً لكن ملامحه غائرة وقديمة.

***

في هذا الوقت، كانت منى توشك على الوصول إلى بقية سيارات الشرطة التي انطلقت قبلها نحو الموقع حيث شوهد المشتبه به، وراحت تعاين محيط المنطقة مجدداً على طول الشارع الذي يوصلها للمكان المنشود، ثم أمسكت بجهاز الاتصال اللاسلكي وقامت بمخاطبة أفراد الدوريات:

- ما وضع المشتبه به؟ لا يقتحم أحد الشقة قبل وصولي. مفهوم؟

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ليأتي الرد من الفريق الآخر:

- كما ذكر الشاهد فقد رُصد أحدهم يدخل المبنى المشار إليه دون أن يخرج بعد، ونعتقد أنه لا يزال بالداخل.

- هذا جيد.

قالت وأنهت الاتصال ثم ضغطت أكثر على دواسة الوقود حتى تتمكن من الوصول بسرعة، وعلى وجهها ابتسامةٌ خفيفة، ربما استشعرت أخيراً أن هذه فرصتهم الحقيقية للوصول إلى القاتل، لكنها تعلم جيداً بأن الأمور لن تكون بهذه السهولة.

وصلت سيارتها إلى الموقع، وترجلت بسرعة وألقت نظرة على المبنى وعلى أفراد الشرطة المختبئين حوله وقد أطبقوا الحصار عليه من كافة الاتجاهات. كان المبنى قديماً بلافتة مهترئة فوقه، على الأرجح استخدم في السابق كمستودعٍ صغير أو ورشةٍ مغلقة، لكن لا أحد يعلم سبب تركه.

أمرت منى بعض أفراد الشرطة بمرافقتها ثم تقدمت للأمام، ووضعت يدها على سلاحها استعداداً لأي مواجهة قاتلة مع مجرم لا يعرف معنى الرحمة. أخذت نفساً عميقاً، ثم دفعت الباب الذي تُرك مفتوحاً، وتسللت إلى الطابق العلوي.

الدرج كان مظلماً، وهادئاً بشكل مريب، بينما كانت خطواتهم

ART_OF_BOOK

خفيفة الظل رشيقة إلى أن أشارت لهم بالتوقف حين سمعت صوتاً خافتاً، وحركةً سريعةً في الأعلى. لم يكن لديها وقت للتردد. رفعت مسدسها وصوبته نحو الأمام وبدأت الجري ومن خلفها باقي أفراد الشرطة ثم وبصوت صارمٍ بعد أن اقتحمت المكان قالت:

- توقف! الشرطة!

لكن بدلاً من أن يتوقف، لمحت أطراف أقدامه وهي تهرع نحو ما يبدو وكأنه مخرجٌ خلفي.

- لا تدعوه يهرب!

صرخت بقوة في إشارة لإعلام البقية الذين يحاصرون المبنى بالانتباه للمشتبه به، الذي يتجه ربما صوبهم، أخذت بالركض رفقة بقية الدعم، إلى أن وجدت ممرّاً ضيّقاً في الخلف يؤدي إلى سلالم حديدية معلقة وخفية تقود إلى زقاقٍ طويلٍ. قفزت خلفه وهي ترى ظله يتحرك بسرعة، ويندفع بين الجدران الخرسانية قبل أن يختفي بين الزوايا، كأنه شبح.

لم تكن مستعدة لتركه يهرب بهذه السهولة. لذا ارتمت عن درجات السلالم قبل وصولها للأرض، فارتطمت بالخرسانة أسفلها بقوة بالغة.

- هل أنتِ بخير ؟!

ART_OF_BOOK

قال أحد زملائها الذي نزل خلفها، لكنها لم تبال بإصابتها حيث نهضت وأسرعت خلف الرجل الغامض. عازمةً على الإمساك به هذه المرة، مهما كلفها الأمر، رغم مطاردتها السريعة إلا أنها لم تستطع الإمساك بالغريب. اشتعلت حسرةً وغضباً وعادت أدراجها بعد أن أوعزت لباقي أفراد الدورية بالتوجه خلفه ومحاولة إغلاق المنطقة بشتى الطرق، رغم أنها تعلم أنه يستحيل فعل ذلك مع الكم الهائل من الأبنية المزدحمة والقديمة والمتداخلة بعضها مع الآخر.

وصلت إلى المبنى المهجور حيث بدأت تفتيشه رفقة أحد أفراد الشرطة. لقد اتخذ الغريب المكان منزلاً له، هناك القليل من الأطعمة المغلفة ووسادة وغطاء مع زجاجات مياه مصفوفة جنب الحائط، إضافة إلى ألبسة موضوعة في كيس ممزق قديم.

- لا يبدو أن هذا الرجل قاتل. إنه أقرب لمتشرد!

قال الشرطي، وهو يتمعن في قذارة حاجياته، حيث لا يوجد ما يدل على أنه يمتلك مشرحاً أو مسلخاً، حتى السكين الوحيدة الموضوعة داخل الصحن البلاستيكي القديم لا تقطع تفاحة.

- لماذا فر بهذه الطريقة إذاً؟

ردت المحققة على استفساره وهي تضع ذلك أحد الاحتمالات المطروحة.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

- لا أعلم، ربما أصيب بالذعر لا أكثر.

ثم توجه الاثنان لمشاهدة الشريط عند صاحب المتجر الذي ستقبلهما بتوتر واضح، وأخرج لهما الشريط، وقادهما إلى غرفة صغيرة حيث جلسا حول شاشة قديمة، ينتظران الحقيقة التي قد تكشفها الكاميرا، ثم بدأ العرض.

المتجر كان هادئًا، الزقاق مظلم كعادته، ومن بعيد تحت أحد أضواء الأعمدة الطرقية المضاءة، ظهر ذلك الشخص، نحيلاً رغم ارتدائه سترةً طويلةً كما يبدو، ومتوسط الطول نسبيّاً. يسير بخطواتٍ ثابتة، ويجرّ حقيبة كبيرة خلفه دون أن تظهر عليه أي معاناة في جرها.

لم يكن ينظر حوله. لم يتوقف للحظة. مشى وكأنه يحفظ المسافة بالضبط، وكأنه يعرف أين ستقوده أقدامه. الأمر المحبِط أن وجهه لم يظهر مطلقاً، أثناء ذلك عقدت منى ذراعيها، وهي تحدق في الشاشة بصمت. ثم التفتت إلى زميلها ويدعى صالح، وهو شرطي قديمٌ في المركز صاحب خبرةٍ جيدةٍ ونظرةٍ تحليلية لا بأس بها، ثم دار بينهما استنتاج سريع لما شاهداه.

- هذا ليس تصرف شخص عادي، أليس كذلك؟

- بل تصرف شخص يعرف المنطقة تماماً، وأين توجد جميع الكاميرات التي تعمل، لاحظي كيف مشى ضمن خطوط

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

غير مرئية، لم يعطِ الكاميرات سوى ما يريدها أن تراه.

- يستحيل أن يكون كل هذا مصادفة، هل يمكن أن يكون من المنطقة نفسها؟ شخص يعرف كل تفاصيل الزوايا والمداخل؟

- هذا ممكن، لكنْ هناك احتمال آخر.

التفتت منى نحوه بتركيز:

- ماذا تعني؟

- ربما لا يكون من هنا أصلاً ربما جاء من مكان آخر، لكنه درس المنطقة مسبقاً، كما درس باقي الأماكن قبل أن يرتكب فيها جرمه ويربك الجميع بعدم اكتشاف هويته.

كانت هذه فكرةً جديدةً مثيرةً للقلق أكثر، أعادت المحققة تشغيل المقطع، وراقبت كل حركة، ثم أوقفت الصورة عند لحظة عبوره قرب مبنىً قديم.

- هذا المبنى.. يجب أن نتتبع الطريق الذي قدم منه .

- أيعقل أن هناك مسلكاً آخر بعيداً عن أعين الكاميرات؟ لو استطعنا تحديد خط سيره بالكامل، فربما نجد مكاناً آخر تم رصده فيه.

كانت تعلم صعوبة الأمر لكنها اندفعت بإحساسٍ غامرٍ كأنها متيقنة بأنها ستجد ما يهدئ روعها.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

«لقد اختفى، لا أثر له».

خاطبها أحد رجال الشرطة عبر اللاسلكي وهو يحاول التقاط انفاسه، أخبرها بأن مطاردة الرجل الغريب لم تفلح، لقد غاب كالشبح، رغم أنهم استمروا في اللحاق به في الاتجاه ذاته الذي أخبرتهم به المحققة. استمعت للخبر ثم عادت للتفكير بالشخص الغامض صاحب الحقيبة، كانت على قناعةٍ تامة أن الآخر الذي تمت مطاردته لا يمت للقاتل بصلة، انشغل تفكيرها في مجاراة ذكاء القاتل الذي يعرف كيف يحمي نفسه، فهي تحتاج الآن إلى أن تكون أكثر فطنة ودهاء.

انتهت من المشاهدة حيث سحبت الشريط المصور لإرساله إلى الفريق التقني في المركز، ثم نظرت إلى صالح الذي بدا أنه ينتظر أن تنهي مشاهدة المقطع.

- علينا أن نتبع هذا المسار صحيح؟

أومأت برأسها لتأكيد ذلك ثم غادرت المتجر، والرجل العجوز منزوٍ منذ البداية بعيداً عنهما على أمل أن يغادرا قريباً.

***

ART_OF_BOOK

جلس زياد في غرفته، يتأمل الصور التي التقطها في المستشفى القديم. في كل مرة يعيد النظر فيها يشعر بأن هناك ما يفوته. آثار الأقدام المتداخلة الغريبة، الشبح الذي رآه ولم يجد له أثراً، والأهم، ذلك الشعور الثقيل الذي ظل مرافقاً له، حتى شعر للحظات أنه وصل لعتبة منزله أو تسمر في الخارج يحاول رصده، وقد أكد المحقق ذلك بتفقده للنافذة مرتين وهو يسير متوتراً داخل صالة منزله.

حرك إصبعه على شاشة هاتفه مجدداً، كبر الصورة مرة أخرى، ثم كبّر أخرى، حيث التقط عدة صور أثناء خروجه، وفي إحداها وجد طيفاً غريباً في الخلفية. لم يكن واضحاً في البداية، وأقرب لانعكاسٍ صغير على إحدى النوافذ المحطمة. أعاد تكبير الصورة قدر الإمكان، وببطء بدأت تتضح بعض التفاصيل. شاهد شبح الرجل، لم يكن يتوهم ما رآه فعلاً، لقد وقف في الظل مختبئاً كالثعلب داخل الغرفة على بعد عدة أمتار منه. لكن لا ملامح له، مجرد شكلٍ ضبابيٍّ خسيس، ظل يراقب زياد إلى أن خرج من المستشفى، لكن الحيرة أخذته لأبعادٍ أخرى، فلا يعلم الآن إن كان هذا اللعين ظل في الداخل أم خرج كما كانت تشير آثاره عبر النافذة.

ART_OF_BOOK

أصابه الصداع من كثرة تحليلاته المتداخلة، لذا وضع هاتفه جانباً، وتوقف عن الحركة، ثم جلس وأسند ظهره للأريكة، وهو يحاول استيعاب الأمر.

***

صعدت منى إلى السيارة ورافقها صالح، بينما أعطت الأوامر لبعض الأفراد بالبقاء والمراقبة وثبتت نقاطاً في عدة أزقةٍ جديدة رغم قلتهم، لكنها مجبرةٌ الآن على اتخاذ أقصى إجراءات الحيطة للإمساك بالقاتل.

- الناس خائفون. لم أرَ الشوارع بهذا الهدوء منذ سنوات.

قال صالح، وهو يراقب الفراغ الكبير الذي سببته إشاعة عودة السفاح المتسلسل.

- هذا أفضل حالياً، إلى أن نتمكن منه.

ردت المحققة وهي ترصد بالفعل الشوارع الفارغة الكئيبة، التي ازدادت حزناً عن سابق عهدها. وصلت السيارة إلى الشارع المحاذي لمكان الجريمة حيث وقفت سيارة دورية قرب الشريط الأصفر الذي يمنع أحداً من الاقتراب لمسرح الجريمة. ترجلت منى

ART_OF_BOOK

وبدأت تتفحص المكان على أمل أن تجد ولو خطأً بسيطاً، تفصيلاً ما لم ينتبه له القاتل، أي إشارةٍ تفيد للإمساك به.

كان صالح يسير قربها بمحاذاة الطريق بعد أن ركن السيارة، وعيناه مسلطتان في أكثر من زاوية بحثاً عن أي كاميرات أخرى ولو بعيدة قد تكون التقطت مشهداً آخرَ مختلفاً.

- يبدو أن هناك كاميرا طرقيةً عند ذاك التقاطع.

- إنها قديمة وعاطلة، أعرفها جيداً.

أجاب صالح، بينما عادت منى لتتبع الآثار على الأرض حيث عبرت أقدام القاتل وعجلات حقيبة الموت، وبعد دقائق من السير في هذا الشارع الطويل، وجدت المحققة كاميرا أخرى كانت لأحد المتاجر القليلة في المنطقة، حيث دخلت منى وخلفها زميلها لمقابلة المالك، الأخير الذي قام على الفور بعد رؤية شاراتهما وفسح المجال لهما لمشاهدة التسجيلات.

مجدداً، ظهر الشخص نفسه وبالطريقة ذاتها. عبَرَ دون أن ينظر لأي جهة، ولكن هذه المرة ترك رسالة أجبر فيها منى على التوقف عن التنفس للحظة.

- توقف هنا، عد للخلف قليلاً!

أعاد صالح التسجيل ببطء، وعند المتجر قبل أن تختفي صورة القاتل تمكنت الكاميرا من التقاط شيء جديد، إنه انعكاس يده والتي وجهها مثل مسدس مصوبٍ للناظر خلف الشاشة، لم تظهر تفاصيل وجهه بوضوح حيث كان الوقت ليلاً وكل اللقطات التي تم رصدها كانت لعبور القاتل تحت مصباح المتجر أو عمود الإنارة في الرصيف المقابل.

- يا له من وغد حانق!!

- لا بد وأنه القاتل نفسه. لقد عاد.

قالت المحققة وسط ارتياب مالك المتجر الذي بدا أنه يتنصت لتحليلاتهما.

***

في مكتب العقيد أحمد، كانت الأجواء متوترة أيضاً. الصفحات الأولى من الصحف كانت منتشرة فوق مكتبه، وعناوينها تحمل الكثير من النقد والسخرية.

@ART_OF_BOOK

«الشرطة تفشل مجدداً في إيقاف الهجمات، والمدينة في خطر!»

«المقلد يضرب من جديد، هل نحن أمام سيناريو تقاعسٍ آخر للشرطة؟»

«الرعب يعود إلى الشوارع. . . إلى متى ستظل الشرطة صامتة؟»

«إلى متى ستظل المدينة مهملة، مدينة أشباحٍ وسفاحين؟!».

رمى العقيد إحدى الصحف بعصبية عن المكتب، ثم نظر إلى مساعده وقال بحزم:

- إن لم نحصل على شيء خلال الساعات القادمة، فسنضطر لعقد مؤتمر صحفي. وهذا آخر ما أريده الآن!

أومأ المساعد بالموافقة بحذر، وهو يشاهد بركان الجنون والغضب المتفجر قبالته. بينما في الخارج، كان أفراد المركز يتحركون بسرعة، من هنا بريد إلكتروني ومن هناك فاكس. المكالمات لا تتوقف، والناس بدؤوا يرسلون بلاغات عن أي شخص يبدو مشبوهاً مما زاد من

ART_OF_BOOK

خطورة الموقف وارتباك الشرطة، وحتى تلك اللحظة لم يكن هناك أي تقدم حقيقي، إلى أن دخل أحد الأفراد على عجلة.

- سيدي، لدينا شيء جديد!

التفت العقيد نحوه بسرعة، وعيناه تعكسان مزيجاً من اليأس والعصبية.

***

غادرت منى المتجر وعقلها يكاد ينفجر، مع إرهاق شديدٍ بدا عليها خاصةً أنها لم تنم جيداً الليلة الفائتة، إلى أن صادفت كاميرا أخرى أشار إليها زميلها، حيث سارا بخطواتٍ ثابتة، وأعينهما تراقب كل زاويةٍ محيطة بالمتجر بدقة، فالمنازل الفقيرة المكدسة مثل صفوف من التوابيت لا يدخلها الطعام ولا الحب.

كان المتجر صغيراً، بالكاد يتسع للرفوف الفارغة من المنتجات الغذائية، ورائحة الرطوبة والورق القديم تملأ المكان. خلف المنضدة، كان هناك رجل أربعيني، يبدو عليه الضجر والتعب، رفع نظره نحو منى قبل أن ينطق بصوت خشن:

- تفضلا.

- نحن من الشرطة، نريد الاطلاع على تسجيلات كاميرات المراقبة لديك.

ART_OF_BOOK

قالت المحققة وهي تظهر شارتها لتقدم الأمان للرجل المرتبك، لكن على الفور أشار الرجل إلى السقف، حيث تتدلى كاميرا صغيرة قديمة.

- لدي كاميرا في الخارج، وأخرى في الداخل لكنها للأسف تعطلت منذ أيام. كنت أنوي إصلاحها، أما الأخرى المطلة على الشارع فقد تعطلت قبلها منذ حوالي شهرين.

تبادل صالح ومنى النظرات، ثم بدأ صالح طرح الأسئلة على الرجل:

- منذ كم يوماً تحديداً؟

حكَّ الرجل رأسه بتوتر وكأنه يسترجع المعلومة.

- خمسة، ربما ستة أيام... لا أذكر بالضبط.

- لم لا تصلح الكاميرات؟ ألا تخشى أن تتم سرقتك؟

ضحك الرجل وهو يشير للرفوف الفارغة وأكياس الرز المهترئة والعلب المعدنية لمنتجات ربما انتهت صلاحيتها، وبعض المنتجات الأخرى:

- من يريد توريط نفسه بسرقة ما يسد النفس؟!

كان رد المالك كافياً للمحققة لتستدير وتغادر المتجر، أخذتها أفكارها إلى القاتل الذي يرجح أنه قام بتعطيل كاميرات الشارع

@ART_OF_BOOK

عمداً قبل ارتكاب جريمته، دونت منى هذه الملاحظات على دفتر صغير أخرجته من جيب سترتها ثم أغلقته، وشعرت بضيق يتصاعد بداخلها. القاتل أذكى مما توقعوا، لم يترك لهم خيطاً واحداً يعزز التحقيق، كل الأدلة متناقضة ومنقوصة.

على الجانب الآخر، ما زال المركز يعج بالفوضى والنداءات. أصوات الهواتف لا تتوقف، والتعليمات تتطاير في الأجواء. التوتر يزداد والجميع تحت ضغط ما يحصل. في الخارج، كانت الشوارع تشهد تشديداً أمنياً غير مسبوق، سيارات الشرطة تنتشر في أغلب مناطق المدينة، هذا سيصعب على القاتل الحركة ولو بشكلٍ مؤقتٍ، لكن الناس لا يمكن أن يظلوا قابعين في بيوتهم، يحتاجون للخروج إلى العمل، أقله إلى السوق لجلب حاجياتهم، بينما المشردون والعاطلون عن العمل، الذين اعتادوا التسكع في الزوايا المهجورة، باتوا الآن تحت الأنظار. بعضهم هرب خشية الاعتقال أو مهاجمة السفاح، والبعض الآخر ظل يراقب بصمت، أعينهم مليئةٌ بالخوف والشك. لم يكن الأمر مجرد دوريات، بل كان حصاراً جليّاً خانقاً للمدينة، لن يوفر العقيد أحمد جهداً هذه المرة للإمساك بالقاتل.

ART_OF_BOOK

بعد أن وصلت منى لآخر جولتها بانتهاء الشارع الذي يطل على شبكة أخرى معقدة من المباني المتلاصقة التي تحجب تماماً كل أثر يمكن أن يدخل أو يخرج عبرها، التفت رفقة زميلها لتعود إلى المركز وفي عقلها الكثير من التحليلات المتشابكة، وبالفعل ما أن قام صالح بإيصالها إلى المركز حتى اتجهت على الفور إلى غرفة الأدلة.

أضواء الفلورسنت في غرفة الأدلة كانت باردة، تلقي بظلالٍ شبحيةٍ مثيرة للهلع فوق صناديق الملفات القديمة المتراكمة على الطاولة أمامها وفوق الرفوف حولها في كل مكان. بحثت منى عن أحد الصناديق ثم سحبته وجلست على الكرسي المعدني، ورفعت الغطاء القديم حيث تطاير الغبار في كل ناحية، لتخرج بعدها الملفات الموجودة في الداخل وتبدأ تصفحها. قلّبت يداها بعض صفحات التقارير حيث كانت تعود للجرائم القديمة.

أغلقت هذه الملفات منذ سنوات دون أي نتيجة، لكن الآن، مع ظهور السفاح أو «المقلد»، عادت الإشاعات والهلع لتطفو في فضاء المدينة، مثل جثة رُميت في النهر منذ زمن بعيد، وفي منتصف كومة المستندات تلك، توقفت يدها. رأت صفحةً لم تكن هناك من قبل،

@ART_OF_BOOK

بها حديثة، بحبرها وحروفها التي لم يمسسها الغبار بعد، وكأنها وُضعت هنا منذ لحظات فقط.

فتحتها ببطء، ونبضات قلبها تزداد سرعةً وتوتراً بطريقة مبهمة، حيث خطر في بالها فوراً ملف المستشفى ذاته الذي تحتفظ به في مكتبها. كانت الورقة مكتوبةً بخط يد، لكنه كان خطها، أو يشبهه إلى حد جنوني. تجمدت عيناها، عقلها رفض التصديق، لكن الحقيقة كانت أمامها. مجموعة جمل مرتبة بعضها خلف بعض، كانت كافيةً لإحداث دوامة في رأسها:

«لقد اقتربتِ أكثر، الحقيقة تنتظرك يوماً ما»

«أنتِ تبحثين في المكان الخطأ»

«الأمر لم ينتهِ بعد»

ارتجفت يدها بقوة دون أن تقدر على التحكم بها، حاولت بلع ريقها، لكن حلقها كان جافّاً مع مرار كبير ينتشر فوق لسانها.

«من فعل هذا؟ متى؟ وكيف؟»

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

فكرت بينما منعت الهواء في صدرها من الخروج، حاولت التوازن قدر الإمكان ثم أخرجت علبة دوائها وابتلعت عدة حبات دون أن تحصي عددها، وانتشلت هاتفها لتتصل بزياد.

رن الهاتف مرتين، ثم جاءها صوته متقطعاً قليلاً:

- أهلاً بكِ، كيف حالك؟

لكن دون أن تبالي بتحيته باشرت بغضبٍ سؤاله:

- هل لمستَ ملفات الجرائم القديمة مؤخراً؟ هل عبثت بها أنت أو أي شخصٍ؟!

صمت للحظة، فقد فاجأه السؤال.

- لا. لم أقترب منها ولا أعلم عن ماذا تتحدثين أصلاً ولماذا أشعر بأنه اتهام لعين؟!

أغلقت عينيها للحظة، تحاول تهدئة نفسها فهي تعلم أن زياد جديد في المكان ولا يعلم تفاصيل الجرائم القديمة بحذافيرها، ولا يمتلك أي معلومات عن حياتها الشخصية لهذه الدرجة حتى يستغل ضعفها، لكن لم يكن ما يجري منطقياً، تشعر أنها ستصاب بهستيريا، ستخرج عن طورها إلا أن أثر الحبوب المهدئة كان يؤتي ثماره، حيث بدأت تهدأ رويداً رويداً.

- سأكلمك لاحقاً، إلى اللقاء..

ART_OF_BOOK

لم يصدق زياد هدوءها المفاجئ، فرغم معرفته القصيرة بها إلا أن شخصيتها مفضوحة أمام الجميع، وهو تحديداً أصبح يفهمها بشكل واضح، لذا لم يحاول أن يضغط عليها أكثر أو أن يفضح ذهابه للمستشفى، يكفيه ما تلقاه من ذعرٍ وألمٍ منذ الصباح الباكر.

- انتبهي لنفســـ....

أنهت المكالمة بينما يتحدث وجلست دون حراك، لم تعد تسمع الأصوات في الخارج، لقد زادت الجرعة بشكلٍ جلي، وبدأ تتحسس طنيناً في أذنيها ترافق مع دوارٍ خفيف. هناك شخصٌ ما يتلاعب بها. شخصٌ يعرف كيف يجعلها تصل إلى حالة الجنون، يجعلها تشك بكل شيء حولها. ربما جال في بالها تلك اللحظة اسمٌ واحد. «سيف».

وضعت رأسها بين يديها، أنفاسها كانت ثقيلة. كل شيء أصبح متشابكاً، لا دلائل بيّنة تستدل بها على طرف صحيح تتمسك به وتنهي عذابها وفقدانها للسيطرة، حتى أفكارها عن سيف غير متوازنة أو منطقية، لن يتمكن ببساطة من الدخول إلى هذا المكان والعبث فيه، وتجاوز الكاميرات أو الحارس في الخارج. إنه خائن من الداخل بالتأكيد، لكن من هو ؟!

ذكريات شقيقها المفقود عادت لتزعزع كينونتها، مثل أمواج عنيفةٍ تضرب جمجمتها من الداخل ولا تتوقف. منذ اكتشافها سره

لم تجد له أي أثر. مجرد فجوةٍ في حياتها لم تُملأ أبداً، ولولا هذه الجرائم الحالية لوضعت جهداً أكبر في البحث عنه. لا تدري كيف خطر في ذهنها أيضاً أن يكون هناك رابط بينه وبين هذه الجرائم.

- لا، هذا جنون.

همست وهي تنكر هذه الأفكار الغبية التي عبرت أمامها والتي لا يمكن أن تصدق سوى في الروايات والأفلام.

- لكن، ماذا لو؟ ماذا لو أن كل شيء بدأ قبل سنوات، ولم أنتبه إلا الآن؟

جربت النهوض من مقعدها لكن دواراً شديداً أعادها لمكانها، ثم أغلقت الملفات ووضعتها داخل الصندوق مجدداً، وحشرت الورقة المريبة في جيبها. لن تسمح لهذا العبث بأن يسيطر عليها. رغم ذلك وفي أعماقها، كانت تعلم أن القاتل لا يلاحق ضحاياه فقط، إنه يلاحقها هي أيضاً.

بعد دقائق من الإرهاق والترنح، سارت بصعوبة وهي تعيد الصندوق لمكانه، لتلتف نحو الباب حيث كان الحارس يدون بعض الملاحظات، وغادرت دون أن تبالي بوجوده. أرادت الذهاب إلى المنزل لذا كانت خطواتها أسرع من المعتاد، كأنها تحاول الهروب.

@ART_OF_BOOK

شعرت بحاجة ملحة للابتعاد عن كل شيء، عن المركز، عن الجرائم، عن الأسئلة التي غدت أكواماً بلا إجابة.

لا تدري كيف قادت السيارة ووصلت للمنزل، لكنها وجدت نفسها أمام الباب فعلاً، وقبل أن تحاول فتحه سمعت صوتاً مألوفاً، أقرب إلى صوت والدها وهو يتحدث. تصلبت أرجلها في مكانها. قلبها ارتفعت نبضاته بعنف. لم يكن الصوت مجرد همهمة، بل كان حديثاً واضحاً، وكأن هناك حواراً واضحاً يجري في غرفته المطلة على الشارع.

لكن، في اللحظة التي اتخذت فيها خطوة للأمام وهي تفتح الباب، ساد صمت تام. كأنه انتبه لوجودها وأغلق فمه على الفور. انعطفت بسرعة نحو غرفة والدها، يدها على المقبض، لكن الباب انفتح قبل أن تلمسه.

خرجت الممرضة بوجهٍ شاحب، في يدها كتابُ شعرٍ قديم. كانت عيناها تفضحانها، القليل من الذنب يعبث بتفاصيل سحنتها.

- كنتِ تتحدثين معه؟

ART_OF_BOOK

هزت الممرضة رأسها بسرعة تنكر كلام منى، ويدها تشبثت بالكتاب كأنها تحاول التشبث بكذبة.

- كنت أقرأ له. هذا كل شيء.

لم يعجب المحققة الرد، بالمقابل تحركت عينا الممرضة نحو الغرفة للحظة، كأنها تتحقق من حال والدها.

- سمعت صوتًا آخر، لم يكن صوتكِ!

- لا... لا أحد هنا. ربما تخيلتِ الأمر.

لم تستوعب منى كلماتها، فقد عاد الدوار إلى رأسها مجدداً ربما كانت تتوهم صوته فعلاً بسبب الجرعة الأخيرة، ولم ترد إضاعة الوقت في جدالٍ عقيم. رغم ذلك دفعت الباب برفق ودخلت، ونظرت إلى والدها. كان مستلقياً على السرير، عيناه نصف مفتوحتين، نظراته شاردة، مؤكداً الوهم المتوغل في أفكارها. الغرفة كانت هادئة تماماً، لا مجال للشك بأي حدثٍ مريب.

خرجت متوجهةً صوب غرفتها وأغلقت الباب بهدوء حيث لا تحتمل أن تسمع أي صوت، وسقطت بكامل ثقلها فوق السرير كأنها قطعة من الأثاث. لا تزال الصفحة داخل جيبها، حملتها من جديد وتمعنت في تفاصيلها. ندوب الخطوط المكتوبة بتوتر، ثم

قفزت لرأسها صورة دفتر والدتها، وكمية الألم الذي أخفته عليها في صغرها واحتفظت به حتى جاء اليوم الذي اكتشفت فيه حقيقته القاتلة.

«ربما وجدت المزيد!»

فكرت في ذلك في نوع من الهروب من التفكير المستمر بالسفاح الطليق، لتعطي المساحة لهواجسها بالابتعاد لوقت قليل، حتى يتسنى لها استعادة تركيزها والعودة للعمل بنشاطٍ أكبر، وبالفعل ما أن شعرت بأنها استجمعت حفنةً من قوتها حتى انطلقت نحو السقيفة.

صعدت الدرج المؤدي إليها بخطواتٍ ثابتة. بعد أن أشعلت المصباح الضعيف في الأعلى، الهواء هناك كان ثقيلاً، والغبار متراكماً فوق كل شيء مثل أول مرة صعدت ووجدت دفتر والدتها المخفى. المكان بالكاد يستخدم. مليء بالصناديق القديمة، وبقايا حياة والدتها التي رفضت التخلص منها.

بدأت تبحث وتنبش الأغراض بشكلٍ فوضوي. تدفع الكتب القديمة جانباً، تحرك أكياس الملابس التي لم تلمسها منذ سنوات، إلى أن وقع نظرها على صندوق خشبي قاتم أحمر اللون، كان مخبأً بعناية بين ثياب والدتها. كان ثقيلًا بعض الشيء حين جربت حمله ربما كان

@ART_OF_BOOK

وزن خشب الماهوجني نفسه، تم إغلاقه بإحكام دون أن يُترك معه أي مفتاح، نظرت إليه بتمعن وهي تحتضن ذكريات والدتها القديمة.

كادت تنزلق قدمها عن السلم الحديدي وهي تمسك بصعوبة بالصندوق، لكنها نجحت في التمسك بقوة إلى أن وصلت للأسفل فدخلت غرفتها، وأغلقت الباب خلفها. وضعت هذا الكنز أمامها على السرير وهي تجرب توقُّع ما تركته أمها قبل وفاتها، تأملته للحظات وتحسست الغطاء الخشبي البارد.

عادت لها مشاعر الغضب، لا بد وأن مفعول الدواء في دمها بدأ بالتراجع، أو أنها استذكرت خداع أمها وما جنته من صراع وألم بعد ذلك، خاصةً الآن وهي تحاول سبر أسرار أخرى ما أن تجد المفتاح الذي سيفضح أكاذيبَ حاولت والدتها إخفاءها على طفلتها إلى وقت تصبح فيه قادرة على استيعاب ما حصل، فتهدأ روحها تحت التراب.

- أرادتني أن أجده بالتأكيد، كتلك المذكرة، لكن لماذا أخفت المفتاح؟!

قالت وهي تستعد للنهوض للبحث عن ضالتها في غرفة والدها،

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

حيث عم الهدوء المنزل مع كلمات أبعد من أن تكون مسموعة تلقيها المرضة التي تقرأ لوالدها بعض الشعر كما يبدو، أما في الخارج فالمدينة أصبحت ساحة خوفٍ وصمت قاتلٍ رغم أن الوقت لا يزال ظهراً.

بعد لحظات، اقتحمت غرفة والدها ودون أي مقدمات بدأت العبث بالأدراج الخاصة بأمها، حتى تلك التي كان والدها يجمع فيها أغراضه الهامة، لم تلقِ بالاً لنظرات المرضة المستنكرة، بل استمرت بتحريك الأوراق، ودفع الأشياء جانباً، وكأنها تبحث عن شيء يمكنه أن ينقذها من هذا المأزق الجديد.

- ماذا هناك؟

قالت المرضة المصعوقة بهجوم المحققة المخيف، دون أي رد من منى.

- لا شيء!!

قالت وقد ازدادت أنفاسها حدة. أطرافها متوترة تتطاير وتبحث في كل صوب. غدت الغرفة بأكملها أشبه بساحة حرب، كان تصب جام سخطها على جميع الأدوات في الغرفة، لم ينجُ من عبثها ودمارها أي درج من الأدراج، أو غطاءٍ أو رداء.

ART_OF_BOOK

الهروب من الوجع لا يعني نسيانه؛ بل تأجيل انفجاره

@ART_OF_BOOK

حين يئست ولم تجد ما تبحث عنه، استدارت نحو والدها. كان جالساً على كرسيه المتحرك، بالجمود المعتاد نفسه، عيناه ثابتتان على نقطةٍ ما على الأرض، ولا أثر لأي تفاعل أو استجابة منه.

خطت نحوه ببطء، وقفت أمامه، مالت باتجاهه ثم حدقت في عينيه لثوانٍ صامتةٍ وطويلةٍ أرعبت بها الممرضة المسكينة التي حاولت تمالك أعصابها واستندت على الحائط خلفها. حاولت منى البحث عن شيءٍ خلف نظراته الفارغة، ربما ما زالت تعبث بها الأصوات التي سمعتها حين وصولها، يكفيها خيانة أمها.

- أين مفتاح الصندوق؟

لا يوجد رد، ظلت عيناه معلقتين نحو الأسفل، لم تتحركا حتى فزعاً، ولا رعشة في الجفون. كانت على وشك التراجع عندما رن هاتفها المحمول فجأة. نهضت على الفور وهي تسحب الهاتف من جيبها، نظرت إلى الشاشة فقبضت أصابعها على الجهاز لدرجة كادت تحطمه لشدة غيظها، ثم ضغطت على زر الإجابة بينما كانت تغادر الغرفة.

- ما الذي تريده؟

- يجب أن نتقابل.

ART_OF_BOOK

- ليس لدي وقت لألعابك، سيف. أنا مشغولة.

- لدي شيء... شيء يجب أن تريه بنفسك. لا يمكنني الشرح على الهاتف، يمكن اعتباره دليلاً!

هدأت المحققة للحظة. لم يكن هذا صوته المعتاد، نبرته مختلفة وجدية.

- أي نوع من الأدلة؟

- قلت لكِ، لا أستطيع إخبارك. سأكون بانتظارك في «مقهى المدينة» بعد نصف ساعة.

ترددت في الإجابة، وأغلقت الهاتف دون رد، كانت ترغب في الرفض، لكن فضولاً غريباً منعها من فعل ذلك، ثم عادت إلى غرفتها، أخذت الصندوق وانحنت تحت السرير، ودفعته بعيداً عن الأنظار. ثم استقامت وأخذت نفساً عميقاً، وارتدت سترتها. وحينما كانت تغادر، التفتت نحو غرفة والدها مجدداً حيث لا يزال الوضع فوضوياً على حاله مع محاولة الممرضة ترتيب الأغراض المرمية حول السرير.

واتجهت على وجه السرعة لمقابلة سيف. المقهى قريب من مكان عملها، حيث كانت تقضي فيه أوقاتاً لا بأس بها، وهو مزدحم في العادة خاصةً في مثل هذه الأوقات، إلا أن الأحداث الأخيرة

أجبرت الناس على البقاء في منازلهم ولم يعد أحد يفضل الوجود في الشارع.

بعد دقائق من انطلاقها وصلت المحققة وركنت السيارة ثم ولجت للمقهى عبر بوابته الزجاجية ذات الطراز الحديث والتي لا تليق بمدينةٍ مهجورة كهذه المدينة. كان المكان خالياً تقريباً، ضوء المصابيح الصفراء الخافتة المعلقة يخلق ظلالًا تتحرك على الجدران.

رأت سيف هناك، جالساً في ركن بمفرده، يدخن بشراهة حيث صنع فوقه غيمةً كبيرة من السم، نظراته مشوشة. لكن حين رآها، رفع رأسه وابتسم بشكل فاضح.

- هل يمكنني أن أطلب لك فنجان قهوة؟

- نعم. لا بأس.

قالت منى بصوت هادئ، وهي تزيح الكرسي للجلوس، فطلب سيف من النادل إحضار فنجانين من القهوة. لم يتأخر الطلب حيث عاد الشاب العشريني حاملاً القهوة الساخنة مع علبةٍ خشبيةٍ تحتوي قطعاً من السكر.

أخذ سيف نفساً عميقاً قبل أن تشن منى هجومها وأسئلتها التي لا تنتهي، وعيناه تركزان في فنجانه.

@ART_OF_BOOK

- يجب أن أخبركِ... هناك أمرٌ لا يريحني إطلاقاً، ولكنني لا أملك دليلاً ملموساً، لا أملك سوى ما سأخبرك به.

عضت منى شفتها للحظة. شعرت أنه قادها لفخ.

- أنت تستهزئ بي، أليس كذلك؟

ضربت الطاولة بيدها ثم نهضت بسرعة، كانت قادرةً على تهشيم وجهه في تلك اللحظة، لكن قبل أن تتحرك خطوةً واحدة، أمسك سيف بذراعها بلطف، بما يكفي لوقفها.

- توقفي! أرجوكِ، دعيني أنهِ كلامي.

قال بلهجةٍ هادئة واثقاً مما لديه، وأخرج دفتره الصغير من حقيبته، ووضعه قبالتها وبدأ يقلبه. كانت صفحاته مليئة بتفاصيل دقيقة عن جرائم سابقة، بعض الأسماء، التواريخ، والأماكن، وكلها كانت تتطابق مع الجرائم الحالية التي حققت وتُحقق فيها. أمسكت منى الدفتر ببطء، وعيناها تلاحقان تفاصيل جديدة أوسع من التقارير السابقة التي قامت بخطها بيدها.

- كل شيء هنا، جميع جرائم المقلد الحديثة والسابقة، أنا متيقن من شيء واحد. جريمةٌ جديدةٌ في الطريق، وستكون مشابهة للجريمة الثالثة. هذه المرة، سيختطف رضيعاً، وسيقتله ضمن رواق أحد المستشفيات.

ART_OF_BOOK

- إنها وجهة نظر، لكن كيف يمكنني أن أقتنع بكلامك؟ كيف يمكنني أن أتحقق؟

قالت منى، وعيناها لا تزالان تتنقلان بين الكلمات المكتوبة.

- أنتِ محقة في شكوككِ. لكن إذا كنتِ تريدين تصديقي، فعليك أن تراقبي جميع المستشفيات، خاصةً مستشفى النور الجديد. هذا المكان قد يكون له علاقة بما يحدث حتى اليوم. أنا على يقينٍ بأن هناك رابطاً ما!

ما زالت منى مترددة وحائرة، لكن كلمات سيف لا تفارق ذهنها. غلقت عينيها للحظة، وشعرت بثقل المسؤولية عليها.

- سأقوم بتعميم أقوالك كمصدر مجهول، وأنا سأتولى المراقبة شخصياً.

قالت وهي تزفر وتهم بالنهوض قبل أن تنهي فنجان قهوتها، بينما ظل سيف جالساً يبتسم، راضياً عن قرارها. شاهدها وهي تغادر بسيارتها وتلتف عائدةً إلى المنزل، الأخيرة التي وقفت لبعض الوقت قبيل وصولها، أرادت بعض الهدوء والهواء النظيف وهي تنظر لبعض المارة المتعجلين نحو بيوتهم، بقيت في مكانها حتى حلول المساء، ثم أدارت المحرك مجدداً وانطلقت بعد أن جمعت شتات

ART_OF_BOOK

نفسها، أما سيف فلم يغادر. ظل في مكانه، يرتشف بقايا القهوة في فنجانه غارقاً بهواجسه.

في ناحيةٍ أخرى، كان زياد يتنقل بين المواقع الإلكترونية والمنتديات المتخصصة بالحوادث، يبحث عن أي تفصيلةٍ غائبةٍ قد تكشف له الرابط الخفي بين الجرائم. لكن كلما ظن أنه اقترب، ظهر خيط جديد يسحبه لمسار أكثر تعقيداً. تأكد له أن يوم إجازةٍ واحداً لن يكون كافياً، لذا أمسك بهاتفه واتصل بالمحققة لطلب يومٍ إضافي. صمتت منى لثوانٍ قبل أن تجيب بالقبول وتخبره عن الوضع الأمني السيئ الذي لا يحتمل غياب أحدٍ حاليّاً، وبأنها ستتحمل مسؤولية غيابه ليوم إضافي آخر فقط.

أنهت بعدها المكالمة وواصلت طريقها إلى المنزل. فتحت الباب الرئيس ثم تسللت إلى غرفة والدها ببطء، إنها تعلم أن الممرضة غادرت بالتأكيد. كان الضوء الخافت لعمود الإنارة الخارجي يرشح من النافذة، يلقي ظلالاً خفيفة على ملامح والدها.

انسحبت بعدها بهدوء، توجهت إلى المطبخ، فتحت درجاً صغيراً وأخرجت كأساً فارغاً ملأته بالماء ثم تناولت قرصين من المهدئات،

امتدت ظهرها للحائط للحظات، تحاول استجماع أفكارها وسط دوامة من الأحداث التي لم تعد تفرق فيها بين الحقيقة والخيال.

بينما كانت مستغرقة في أفكارها، تناهى إلى مسمعها صوت محرك سيارة يتوقف أمام المنزل. مشت نحوه وحدقت عبر النافذة، رأت أضواءها تلمع على الطريق، لكنها لم تستطع رؤية من بداخلها. ظلت واقفة للحظات تراقب المنزل، ثم انطلقت مجدداً، تاركة خلفها فراغاً ثقيلًا وألف سؤال يتراقص في عقل منى التي جربت الخروج خلفها قبل أن تنطلق مسرعة.

دخلت مضطربة ومنزعجة من هذا المراقب الغريب، وأغلقت الباب واتجهت نحو غرفتها حيث تذكرت مجدداً الصندوق فانحنت عند طرف سريرها لإحضاره. لم تجد أي مفتاح خاص به سابقاً في غرفة والدها، لذا نهضت متجهةً إلى الدرج الصغير في أسفل رفوف المطبخ، وفتشت بين الأدوات القديمة حتى وجدت بعض المفكات، ومطرقة صغيرة.

ثم عادت إلى الغرفة، جلست على الأرض ووضعت الصندوق أمامها تمسك بشدة بالمفك. في البداية حاولت إدخاله في الفجوة

الضيقة قرب القفل، لكن الخشب كان أقوى مما توقعت لم تستطع أن تحركه مطلقاً، عندها أمسكت بالمطرقة، رفعتها قليلًا، ثم أنزلتها بقوة على القفل.

ارتد الصوت في الغرفة، لكن الصندوق لم يتأثر أبداً، يحتاج الكثير من القوة لتحطيمه. رفعت المطرقة مجدداً، ووجهت ضربات متتالية على أمل أن تكسره. كانت مستعدة لتوجيه ضربة قوية أخرى إلى الصندوق، لكن قبل أن تهوي بها، دوّى صوت ارتطامٍ عنيف تبعه أنين عميق قادم من غرفة والدها. تجمدت يدها ووجهها، اجتثها الصوت من عالمها.

رمت المطرقة جانباً وقفزت من مكانها وهرعت نحو الغرفة، فتحت الباب بقوة، فوقع بصرها على جسده النحيل ممدداً على الأرض، ووجهه مغطّىً بالدماء، ينزف بغزارةٍ من أنفه، بينما كان يتنفض ألماً.

- أبي!

صاحت ثم جثت بجانبه، تحاول رفعه بحذر وإسناده إلى السرير. كانت أنفاسه متقطعة، وأنفه ينزف. امتدت يدها المرتعشة إلى هاتفها،

لا تدري بمن تتصل، عقارب الساعة في عقلها تجري بسرعة، لذا وقع نظرها على أول اسم في قائمة الأرقام الأخيرة. كان سيف، ولم تفكر كثيراً، ضغطت على الاتصال فوراً.

- سيف... تعال بسرعة، أحتاج مساعدتك!

صوتها كان متوتراً، متقطعاً، كأنها بالكاد تستطيع نطق الكلمات وهي تدله على المنزل. بينما أكد لها سيف أنه قادم على الفور. بدا انتظار الدقائق أقرب لساعات، حاولت خلالها إيقاف النزيف، وضغطت بقطعة قماش على أنفه، لكن بدون فائدة. لم يكن لديها وقت لتفكر في السبب، كل ما يهمها الآن هو مساعدته.

صدح صوت طَرَقاتٍ سريعة على الباب، تلاه صوت سيف يناديها. فتحت بسرعة، فوجدته يلهث، كأنه ركض طوال الطريق.

- أين هو؟

سأل دون مقدمات، أشارت له إلى داخل الغرفة؛ فدخل مسرعاً ثم انحنى وحمل الرجل المرهق، جربت منى مساعدته لكنها أربكت خطواته لذا تابعت خلفه فقط.

ART_OF_BOOK

وبخطوات متعثرة، وصلا إلى الخارج، فتحت منى باب سيارتها الخلفي، وساعدت سيف في وضع والدها برفق على المقعد، ثم اندفعت إلى المقعد الأمامي، أدارت المحرك بقوة، وانطلقت بأقصى سرعة. الطريق كان شبه خالٍ، لا وجود سوى لبعض الدوريات الواقفة بين الشوارع، وسيارات أجرة مضطرة للبقاء في الخارج لتلقف رزقها.

كان وجه والدها شاحباً، ونَفَسه متقطعاً، ويحاول التقاط أنفاسه من فمه، بينما منى التي لم تنظر كثيراً نحوه كان تركيزها منصبّاً على الطريق، وعلى الوصول بأسرع ما يمكن.

«مستشفى النور الجديد» كان الأقرب لها والأسرع، وربما الوحيد الذي يمكنه مساعدتها الآن. هذا ما أخبرها به سيف الذي دوّنَ أماكن المستشفيات بسبب الجرائم الحاصلة. بعد دقائق وصلت منى إلى المستشفى والذي تدخله لأول مرة منذ افتتاحه، ورغم حداثة المكان، راودها شعور غريب بالارتباك، وكأن كل شيء مألوف لديها بشكل غير منطقي. حاولت طرد تلك الأفكار من عقلها وهي تتجه إلى قسم الإسعاف، حيث كانت أنفاسها تتسارع.

@ART_OF_BOOK

توقفت عند مدخل الاستقبال، ويدها لا تزال ملطخة بالدماء، بينما اقترب منها على وجه السرعة ممرضان شابان، يدفعان حمالة الطوارئ التي تكون متأهبة طوال الوقت قرب المدخل، حيث وضعا والدها وانطلقا للداخل، أما سيف فقد ناولها منديله وهو يشير إلى يديها. ترددت للحظة، ثم تناولته بلطف، وأخذت تمسح بقع الدم الملتصقة بجلدها وهي تتمتم بشكر خافت.

كان صوت جهاز المراقبة في الاستقبال يصدح بإيقاع ثابت، يمتزج مع أصوات الموظفين وخطوات الكادر الطبي في زحام المدخل. حدّقت منى للحظة في الأبواب التي ابتلعت والدها إلى الداخل، مع إحساس يثقل كاهلها. يوجد غموض يخيم حول المكان، غموضٌ جعلها تشعر وكأنها وقفت هنا من قبل، عاشت هذا المشهد، أو ربما رأت وجوهًا مألوفة بين الحضور.

- منى، هل أنتِ بخير؟

جاء صوت سيف من خلفها بينما كانت شاردة الذهن، فلم تجب أول مرة مما استدعى أن يلكز كتفها، فانتفضت فزعةً والتفت نحوه مرتبكة.

- اهدئي سيكون بصحةٍ جيدة.

ART_OF_BOOK

- أعلم ذلك، وكنت أريد أن أعبر عن أسفي لتعطيلك.

- لا عليك، لن أتركك في موقف كهذا.

سحبت شهيقاً عميقاً ونظرت حولها مجدداً، وكأنها تحاول التقاط صورٍ لذاكرتها، وتحاول تجنب ذلك الشعور المقيت الذي يطاردها. بيد أن جزءاً منها، الجزء الذي لا تتمكن من تجاهله، كان يدرك أن هذه الليلة قد تحمل مفاجآت أخرى غير متوقعة.

ربما تراءى لها لوهلة أن ضجيج الأقدام في الممر الذي يفضي للداخل هدأ قليلاً، أو ربما كانت مجرد خيالاتٍ تدفعها لتشعر أن الأصوات المتقطعة في رأسها هي السلام الذي كانت تبحث عنه تلك اللحظة، وبين صوت سيف الذي أبى تركها بمفردها وموجات الأصوات المتفاوتة في الممر البعيد وعلى بوابة الاستقبال، اندفعت منى خلف الطاقم الطبي مسرعةً نحو الداخل وهي تشاهدهم يحيطون بالعربة التي وُضع عليها والدها لإجراء جراحة سريعة لأنفه. وجهه الشاحب وأنفه المعقوف نتيجة الضربة المؤلمة، جعلاها تشعر بكم الضيق الذي يستشعره في بحثه عن الهواء، وهي تائهة تحاول إيجاد سبب يقنعها بأنه فعلاً كان مجرد حادث، حيث تخدش سكينتها أصوات تشبه صوتها وتدفعها لتنكر ما فعله.

مضى الوقت والمحققة خارج غرفة العمليات، تستعد لاستقباله والاطمئنان عليه على أمل أن تغادر المستشفى بأسرع ما يمكن، وفي الداخل كان الفريق الطبي قد قام بإجراء جراحةٍ لتصحيح وتثبيت الأنف المكسور بشكلٍ جيد، ومن ثم تركيب جبيرةٍ خاصة إلى حين شفائه.

خرج ممرض من غرفة العمليات متوجهاً صوبها، وبصوته الخافت قال لها:

- حالته مستقرة الآن. لا تقلقي كانت العملية سهلة.

نظرت إليه بعينين ممتلئتين بالتعب والامتنان وبدأت تشكره، ثم نظرت ناحية سيف الذي كان قد أنهى اتصالاً مجهولاً وهو يدخن سيجارته في الخارج قبل أن يلج للداخل لتقصي أخبار الجراحة. خطواته الثقيلة كانت تتناغم مع أنفاس منى المرهقة التي تجرب البقاء بمفردها.

- سيف، أشكرك على كل ما فعلته، لكن أعتقد أنك تحتاج لبعض الراحة. عدِ إلى منزلك الليلة، سأبقى هنا معه.

- لا بأس. أستطيع البقاء قليلاً إن أردتِ.

- أرجوك، اذهب أنا أصر.

كانت نبرتها حادة وجدية كأنها تطرده من أفكارها قبل المكان، فأومأ أخيراً بالقبول متنهداً ثم قال بصوته الأجش:

- إن احتجتِ لأي شيء، فلا تترددي بالاتصال بي وفي أي وقت تشائين.

قال وهو يبتعد ببطء، ومع كل خطوةٍ تفصله عنها وتزيد المسافة بينهما، شعرت منى بثقلٍ أكبر يُلقى فوق صدرها، لا تعرف إن كان السبب ما حل بوالدها، أم تلك الافكار السوداوية التي بدأت تتشكل في عقلها كجدار يسدّ أمامها كل ما يمكن تفسيره.

سكنت الضوضاء، ومر الطبيب الجراح أمامها كطيفٍ باهت، دون أن تنبس بشكر، وكأن الامتنان بات ترفاً لا طاقة لها عليه، ظلت مأخوذةً بشكل الغرفة التي انفتحت أبوابها أثناء خروج باقي الفريق الطبي، وهي تستشعر النسمات الباردة المتسللة من الداخل، والوجوه المقنّعة التي تخفي خلفها معالم الممرضين وسيل الضحكات الرنانة التي يمارسونها غير مبالين بمشهد الدماء والشقوق التي يتعاملون معها، لقد اعتادوا على رؤية هذه العمليات حتى غدت الصور في دماغهم جزءاً من روتينهم اليومي، كالأكل والشرب وممارسة أي نشاطٍ آخر.

أعاد شرودها الحمالة ذاتها التي نقلت والدها للداخل، والتي

ظهرت ما أن فتح الباب للمرة الثالثة يجرها ممرض هزيل القامة باتجاه المصعد للذهاب بالمريض صوب الغرفة المخصصة له، حيث تقدمت خلفه كمن تلاحق نبض والدها المنطفئ، تحدق فيه بعينٍ تتدلى منها الشفقة وتتشبث بأمل هشّ وهي تلاحظ عينيه المثقلتين بالتعب تتمسك بيده في محاولة لتخفيف ألمه وطمأنته بوجودها.

وصلت للغرفة في الطابق الثالث. الضوء باهت، والسكون مشوب بزفيرٍ آلي لآلةٍ لا تعرف الراحة يتردد صداها من جهاز التنفس لمريضٍ آخر يقبع في الناحية المقابلة لهما يغط في سكينته، رغم تثبيت رقبته ورأسه بعدة جبائر كأنه قُذف عن ارتفاعٍ هائل، وكان بمفرده دون سببٍ واضحٍ.

اقتربت منى من سرير والدها، وجلست على الكرسي القريب، حدّقت في وجهه، محاولةً تذكر ملامح الرجل الذي كان يومًا سندها، قبل أن يصبح ظلًّا لرجل نصفه شلل، ونصفه الآخر حزن.

بعد دقائق من التحديق والصمت الذي يطبق على أنفاسها، نهضت واتجهت نحو الحمام في الغرفة ذاتها، ودفعت الباب. أضاءت المصباح، ثم غسلت وجهها بالماء البارد في محاولةٍ لتخفيف كم المشاعر المظلمة التي تخنق أفكارها. رفعت رأسها نحو المرآة، ثم تجمدت فجأةً.

ART_OF_BOOK

من المرآة، جاء انعكاسها تعبيراً عن كم الوجع الذي يستوطن تفاصيلها، مع صوتها الذي بدأ يقتص منها وهي تشاهد حركة شفاهها، كأن الصورة غدت واقعية للغاية بشكلٍ لا يُحتمل.

- لا يمكن للحقيقة أن تشفع لكِ! حتى حين تظنين أنكِ تُحيين، تؤذين.

شهقت منى وتراجعت للخلف.

- من هناك؟!

ضحكة مقلقة ترددت في الجدران، كانت ضحكتها، لكنها مشوّهة، متقطعة، كأنها خرجت من نسخةٍ حاقدةٍ تشبهها، ولا تدري سبب توجسها وقلقها الشديد الذي أجبرها على التراجع أكثر، لكن كانت محقة، فقد طفح انعكاسٌ جديدٌ في المرآة. هذه المرة، كان وجه أمها، مع خيالٍ أسود يمسك رأسها من الخلف، كأنه يتحكم بها.

ابتسمت أمها بأسلوب أقرب للسخرية، كأن كل ما قيل في مذكراتها ينهض من موتِه الآن، تحاول لومها على ولادتها أو تفضيلها على شقيقها.

لم تعِ المحققة ما يجري، تكاد تختنق بخوفها وأعصابها لا تستطيع الاحتمال أكثر، لذا أطفأت الضوء، على أمل أن تنهي عذابها،

وغادرت الحمام بخطوات مرتجفة، وقلبها يكاد يخرج من قفصها الصدري، والتفتت نحوه. كان مغمضاً عينيه بعد أن تلقى جرعةً من المسكنات ساعدته على تخطي ألمه، ثم غادرت إلى الرواق الطويل، وهي تتنفس كأنها خرجت من قاع البحر. مشت بخطاً بطيئة، عيناها تتفقدان الممر، الجدران، الممرضين الذين يمرون كالأشباح. بدت وجوههم مألوفة. رأتها من قبل. هل كانت في حلم؟ في الواقع؟ في مكانٍ ما من ذاكرتها المحشوة بالفوضى؟ لم تكن متيقنة، وبقيت هذه الأسئلة تراودها وهي تستطلع المكان.

أخرجت عبوة الدواء من جيبها، تناولت كبسولة. ابتلعتها وتقدّمت أكثر. خطواتها الرشيقة أصبحت أكثر ثقلاً، كانت تدق الأرض كأنها تطرق على نعش. الجدران التي يُفترض أن تكون بيضاء، بدت لها رمادية. رائحة المعقمات اختلطت بروائح أخرى، لا تعرف وصفاً لها، لكن هناك ما يجعل كيانها من الداخل ينتفض. ويرفع حماستها بشكلٍ غريب، أو ربما الفزع الذي يسري في عروقها وهي تجرب تناسي صورة أمها في المرآة والأصوات التي تعبث برأسها.

في مكانٍ آخر على الرصيف، كان سيف يسير وسط الشارع بخطواتٍ ثابتة، لكن ذهنه كان مشغولاً بتحليل وتفسير بعض الأحداث وهو يحمل دفتره ويدون بعض الملاحظات ويقف في مكانه ثم يلتفت متفحصاً الشوارع المقفرة في عدة اتجاهات وهو يشعر بأنه مراقب.

المطر الخفيف بدأ ينساب من السماء، يُبلل شعره ومعطفه ثم غدا غزيراً مما اضطر سيف أن يعيد الدفتر إلى جيبه ويغلق أزرار المعطف، وهو يرفع رأسه في نشوةٍ غريبة نحو السماء الرمادية المليئة بالصراخ والرعد. لقد أغمض عينيه للحظة ينصت لأصوات الانفجارات في الأعلى. أخفى وجهه المحقون بالغضب وخيوط الماء تسير في أخاديد وجهه الجاد، ربما وجدها فرصةً ليترك بعض دموعه تهطل خلسةٍ وتمتزج بين حبال المطر، وجاهداً حاول إخفاء بكائه لكن عينيه المكتنزتين بالحزن واللتين لا تتسعان لمحجري وجهه فضحتا ما يشعر به وما يرفض أن يعلنه أمام الجميع ولو لعدة ثوان، قبل أن يعود إلى شخصيته الصلبة الشديدة، وهو يستذكر صور الأطفال الضحايا وعائلاتهم المنكوبة.

فتح عينيه فجأة، ثم قرر أن يعود أدراجه. لم يكن يستطيع المغادرة والابتعاد. ليس بعد. هذا ما خطر في ذهنه بينما غدت خطواته

متسارعة، وكل شيء في ملامحه كان يشرح تحت حبال الماء المتساقطة أن هناك شيئاً لم ينتهِ بعد.

بعد دقائق وفي وسط الهدوء الذي يخيم على المحققة وهي تسير في طابق مختلف تجرب الانزواء بنفسها وجمع شتاتها بينما ترنو على يمينها ويسارها إلى غرف ملونة ومزينة، إنه طابق مخصص كما يظهر للولادات والذي ينتهي بغرفة حاضنات كبيرة للرُّضّع الذين يولدون بمشكلات صحية. سارت منى وهي تشاهد إحدى النساء التي تركت باب غرفتها مفتوحاً بينما تحمل طفلها بين ذراعيها.

مضى الوقت وسيف في الخارج عائد نحو المستشفى مجدداً رغم إصرار المحققة على إرساله للمنزل، وحيث مشى غدا الشارع الفارغ الذي ترتمي على أطرافه المنازل القديمة أقرب لمقبرةٍ مخيفة، والأمطار تخف وتعصف بتواتر مزعج. بينما كانت خطواته على مسافة دقيقتين من الوصول، حينها ازداد الظلام الدامس ولمح غياب الإنارة أمامه في البعيد والقادمة من المستشفى لتضفي على وحشية طريقه سماتٍ أكثر ترهيباً ووحدة، لقد قُطع التيار الكهربائي فجأة، ودون أن يدري، شعر بقدميه تحملانه بشكل أكثر خفة وتجرانه صوب المحققة، لقد استدعى منه الاستعجال إلى درجة الركض إلى أن وصل منهكاً إلى المدخل أخيراً، لقد أمضى

هذا اليوم وهو يهرول بين إنقاذ والد المحققة وبين إحساسه بخطب ما سيجري بعد حين.

وبالفعل لم تكد تتخطى قدمه بوابة الإسعاف ومصابيح هواتف الممرضين تتناوب لإضاءة المكان، حتى سمع صوت أحدهم وهو يصيح لتفقد القواطع بشكلٍ عاجل، ثم اختفى سيف وسط العتمة وتوغل للداخل، وبين هديرِ الأنفاس القلقة وصيحات عناصر الأمن المسؤولين عن حماية المستشفى، دوّى صوت انفجارات قوية أثارت هلع الجميع، لقد تردد صداها في كل مكان، وهي تسبح في الظلام المفاجئ. ثم سكونٌ ثقيلٌ مشبوه، يخترقه فقط صوت أجهزة المراقبة التي بدأت العمل على طاقة الطوارئ وهي تطلق صفيراً خافتاً، تنذر بخطر توقفها، منع الخوف الجميع من النهوض أو التحرك، لقد تيبست أجسادهم حتى غدوا جثثاً هامدة.

أما في الطابق الثالث، في غرفة والد المحققة، فلم تكن العتمة وحدها هي من خنق الهواء داخل صدره حين صحا من هول الصوت مذعوراً، بل الخوف الذي تصاعد مجدداً في عينيه الشائحتين، ذاك الرعب البدائي الذي لا يظهر إلا حين تشعر الروح أن الظلمة ليست فراغًا، بل حضورٌ لشيء آخر قد يكون إعلاناً للخراب والموت المتسلل عبر طيات السواد الدامس. كان ينظر إلى

الباب يراقب دخول ابنته ربما، وما زال يرتجف وهو يبحث عنها علها تخفف قلقه.

في الرواق، أصوات الممرضين عادت تتعالى بعد أن أدرك أحدهم أن على أحدٍ التحرك وإنقاذ الموقف، لا يعلم ما حدث فالهلع يسيطر على المدينة منذ فترة.

- ما الذي يحدث؟!

- هل هذا عطل كهربائي؟!

- حصل انفجار ما في القبو وفصل التيار.

تناوبت الأحاديث وسط العتمة، بينما بدأت الهواتف المحمولة تُرفع، الاتصالات تنهال إلى الإدارة، إلى الطوارئ، إلى أمن المستشفى. أصوات متداخلة ومتوترة تنزلق وتتشابك وتنتظر الاستجابة لمخاوفهم مثل صرخات مكتومة.

فجأةً طلقتان اخترقتا آذان الجميع وشلتا أطرافهم من جديد ومنعتاهم من الحراك ولو لبعض الوقت، وشظايا زجاج كثيرة تساقطت ووصل دويّ قِطَعها المكسورة للأسفل، ليعود الخوف سيد المكان ويعم الهدوء مجدداً، فيصدح حينها صوتٌ هستيريٌّ قادمٌ من الأعلى. صوت المحققة منى.

- أمسكوه! لا تدعوه يهرب!

ART_OF_BOOK

صاحت منى وسط الظلام بكلماتٍ ترتجف. تردد صوتها في الرواق مع وقع الأقدام المتسارعة من عناصر الأمن الثلاثة الذين قرروا الصعود صوبها فوراً بدل التحقق من سبب الانفجار في القبو الذي أدى لقطع الكهرباء.

ركض الرجال نحو مصدر الصوت، يحملون هواتفهم لإضاءة الممر والأدراج ويشرعون أسلحتهم أمامهم بحذر خشيةً من أن يصادفوا في طريقهم المسلح الذي أطلق النار. تسلل شعاع المصابيح عبر الرواق ثم بدأ الثلاثة بالسير بهدوء وانتباه، حيث واجهوا الغبار المتصاعد أمامهم حين وصلوا للطابق الثاني، بينما خطت أقدامهم على حطام الزجاج الذي تناثرت كسراته بشكل كبير فوق الممر، مع رائحة بارود قوية تعبث بأنوفهم التي تجرب التقاط وتقصي ما حدث، وبحذر كبير ساروا وكأنهم يتجهزون لإطلاق النار على هذا المعتدي اللعين، دون أن يفكروا في البداية في استطلاع غرفة الحاضنات، حيث ظهر أمامهم جسدٌ ملقىً على الأرض. إنها المحققة منى، ارتمت للخلف واستندت على الجدار، كانت تتأوه بشدة، يدها تغطي وجهها من ضربة أدمت تفاصيله بشكلٍ جلي، وزجاج مهشم منتشر حولها، يبدو أنه قادم من النافذة التي تعلوها،

وبجانبها مسدسها. لا تستطيع إمساكه فَيَدُها أيضاً ملطخةٌ بالدماء بشكل مبهم.

ثم أخذت تصرخ بأعلى صوتها وتشير بصعوبة إلى الوراء:

- خلفي! كان هنا، تحركوا!!

اندفع أحدهم خلف زميله ركضاً بينما اقترب رجل الأمن الثالث وأضاء على وجهها المُدمى، ثم انحنى لمعاينة إصابتها.

- كيف أصابك؟ هل رأيتِ وجهه؟ أيمكنك وصفه؟

انهال عليها بالأسئلة وهو يجرب تفقد وجهها لكنها دفعت يدَه غاضبة بعد أن ضيّق عليها الخناق وهي تكتم غضبها وإحباطها بشكل لا يمكن وصفه، رغم ذلك أخذت نفساً عميقاً ثم أشارت ناحية الرواق جهة ذهاب المسلح على أمل أن يتبع زميليه أيضاً ويتركها، ثم أرفقت إشارتها بقولها:

- لم أشاهد وجهه، لكنه...

جربت الإجابة على أسئلته، قالت وهي تغص بكلماتها، وتحاول التعبير عن المشهد المؤلم الذي عايشته.

- سأكون بخير اذهب!

قالت وهي تزيح قطع الزجاج عن كفها دون أن يعنيها النزيف، تحاول تجاهل كلام الرجل الذي يجرب مساعدتها، إلى أن استسلم

أخيراً لرفضها وابتعد وهو يشهر سلاحه متوجهاً إلى طابقٍ آخر خشية أن يكون المسلح قد اختبأ داخل إحدى غرف المرضى.

بعد دقائق أعاد التيار الاحتياطي إضاءة بعض المصابيح التي تسمح برؤية متواضعةٍ للطوابق على أمل أن يعود التيار الرئيس للعمل مجدداً، أضاءت المصابيح الخافتة الممر كأنما المكان يُبعث من جديد.

حينها ظهر سيف وهو يركض في نهاية الرواق، معطفه مبلل بالأمطار، وصدره يعلو ويهبط بجنون، وعيناه تتنقلان بسرعة بين ملامح الفوضى.

- ماذا حصل؟!

ركض نحوها، جلس إلى جانبها ملهوفاً، تحسس يدها ووجهها برفق، وهي تشاهد ردة فعله حيث التقت نظراتهما.

- لم أكن مرتاحاً لذهابي، لا أعلم كيف أشرح ماهية شعوري لكن جسدي تحرك وحده عائداً، شعرت بأن خطباً ما سيحصل!

قال وهو يتابع الدماء التي خبأت معالم وجهها البريء، بينما فكرت المحققة بكلماته وهو ينطقها بمشاعر أقل ما يمكن القول عنها أنها حذرة، فقد غمرها الشك بوجوده مجدداً ولم تقتنع بعودته البطولية والدرامية ببساطة.

- لا أعلم كيف باغتني، كنت أحاول مشاهدة الصغار من النافذة، وما أن قطع التيار حتى شعرت بحركة مشبوهة قادمة خلفي وحاول أحدهم...

غصت بكلماتها فلم تستطع متابعة حديثها، وهي تستذكر ما جرى، بينما شدت على مقبض سلاحها وهي تقربه منها، وقد أزيل مفتاح الأمان عنه.

- لا بأس اهدئي الآن سأجلب ممرضاً لمساعدتك وأعود.

أومأت بالقبول وهي تشاهده يستقيم ويستدير للذهاب، لكنه توقف لحظة. لم يكن قد ابتعد كثيراً حينما نظر نحو الزجاج المكسور في الغرفة، ثم إلى الحائط المقابل، حيث كانت إحدى الرصاصات قد استقرت فيه بعمق. وعلى الجانب الآخر من الغرفة، فوق نافذة الحاضنة الرئيسة التي كان يصل إليها بعض الضوء من الخارج انعكاس رصاصة أخرى اخترقت الزجاج، واستقرت كما يبدو في الجدار الداخلي، والذي أثار قلقه على الفور خاصةً أنه قرأ على بابها «غرفة الحاضنات».

- من أطلق الرصاصات؟

قال سيف وهو يستكشف الغرفة من الخارج، لكن لم يكن قد عبر بابها حين سمع صوتاً مذعوراً لامرأةٍ قادماً من إحدى الغرف

ART_OF_BOOK

المجاورة، كانت قد تجرأت على الخروج منها أخيراً لاستطلاع ما حدث. أرادت بصوتها المخنوق معرفة ما جرى، وهي تريد الوصول إلى طفلها في الداخل.

- ابقي في مكانكِ يا سيدتي حتى نتفقد الغرفة!

صاح ناحيتها وعاد لمشاهدة آثار الزجاج المحطم الذي يدوسه بقدميه، وأشاح بنظره مجدداً صوب المحققة، إلى الدم على خدّها، إلى عينيها الممتلئتين بالغضب، ثم رفع عينيه نحو الرواق الفارغ الذي ابتلع حياة كل شيء فيه، والتف وهو يتوغل أخيراً داخل الغرفة حاملاً ضوء هاتفه حتى يتفقد المكان لكن ما أن تخطى جسده الباب حتى تجمد في مكانه بشكلٍ غريب.

في الخارج، دوّت صفارات سيارتين من الشرطة وصلتا بعد دقائق من الإبلاغ عن صوت إطلاق تلك العيارات النارية، بدأت أضواؤهما تنعكس على نوافذ المستشفى بوميضٍ أحمر متقطع، ولا يزال الصمت يسود سيف، انقطعت أنفاسه وغاب عن الواقع، المشهد غدا غريباً للغاية، نظرات منى القلقة نحو سيف الذي يحرك رأسه دون أن يلفظ حرفاً، إلى أن باشر بعد ثوانٍ التراجع بارتباك نحو الخارج.

كان الضوء المرتجف للمصابيح الاحتياطية ينعكس على الأرضية الرطبة، حين أوشك رجال الشرطة على الوصول إلى غرفة الحاضنات، يتبعهم بعض أفراد الطاقم الطبي المذعورين الذين أصروا على القدوم لتفقد الأطفال الرضع، وهم يتعثرون بخطواتهم وينظرون بكل اتجاه حاملين أضواء هواتفهم.

- من أنت؟!

صاح الشرطي بحدة بالغةٍ بعد رؤيته لسيف وهو يقف قبالة الباب المفتوح، ثم ودون مقدمات أمسك به أحدهم وشده للخلف مما أعاد صحوته وفوجئ بالرجال المتجمعين حوله، بينما انطلق آخر صوب المحققة لمساعدتها.

- إنه معي.

قالت منى في إشارة لسيف الذي ارتبك ولم يتمكن تلك اللحظة من شرح موقفه، وأثناء ذلك انطلق أحد الممرضين لتفقد الحواضن خاصةً بعد أن اشتم رائحة نفاذة من الداخل، أشبه ما تكون لرائحة الدماء. لم يكن هو أو أي شخصٍ غيره مستعدًّا لما سيشاهد.

دفعت صرخته باقي الرجال الواقفين للقدوم خلفه وتقصي ما جرى، رغم اعتياده على مشاهدة العديد من العمليات الجراحية إلا أن ما رآه الممرض جعله يتقيأ بينما صاح آخر بجنون، وسيف لا

ART_OF_BOOK

يزال متجمداً في مكانه. حتى الشرطي الذي اندفع لمعاينة منى انطلق لاستكشاف الحقيقة

البياض. ذاك البياض الذي يفترض أنه كان يحتضن الحياة، صار مغطّىً بالأحمر. ست حاضناتٍ مفتوحة. ستة أطفال حديثي الولادة مذبوحون. أعناقهم مفتوحة بشقٍّ رفيعٍ، كأن يداً ذات باعٍ طويلٍ قامت بالعمل، ولكن بحقدٍ لا يمكن وصفه. الأفظع والأكثر جنوناً كانت عيونهم. كل رضيعٍ وُجدت عيناه مفقوءتين، خُزقتا بالأداة الحادة ذاتها ربما، وتُرك محجراهما مفتوحين ليبدوا مثل فراغٍ أسود مخيف، أحدهم نُزعت عيناه بالكامل. الدماء نزفت فوق شراشفهم الصغيرة، لَوّنت أطراف الزجاج والمعدن للحاضنة، وجعلت كل ما في الغرفة يبدو كمسرح لجريمة شيطانية خالصة.

استغربت منى التي نهضت واتجهت بصعوبة نحو ذاك التجمع الغريب حيث ارتفع صياح عناصر الشرطة في وجه الممرضين للمغادرة على الفور، بينما قام أحدهم بمخاطبة المركز لإرسال تعزيزات فورية وحصار المستشفى والمنطقة عموماً.

اقتربت المحققة وهي تنظر للداخل ثم حاولت كتم صرختها بعد مشاهدتها للوحشية التي حولت الأطفال لجثث، لا يمكن وصف

جنونها وحقارتها، أما سيف فلم ينبس بكلمة، ما زال يحدّق، كأنه يجرب نكران ما شاهده والاستيقاظ من هذا الكابوس المرعب.

ثم بدأت الصرخات من النسوة اللاتي تجمعن في الخلف على صدى أصوات الممرضين وهياج عناصر الشرطة، سارعت إحداهن للدخول ورؤية صغيرها لكن أحد الممرضين دفعها للخلف وأمسك بها والدموع على وجهه، منعها من الوصول ورؤية ما حل برضيعها، في محاولة يائسة لإخبارها بوفاته. تحولت الأم إلى عاصفة مجنونة انهارت أعصابها وهي تصيح وتنوح بشكل هستيري للسماح لها بالوصول للحواضن. تجمعت بعدها كافة النساء كعاصفة عويل، وذاب الحزن في الغضب، حتى صار الهواء يختنق بأنينٍ جماعي لا يُسكت، اختلط مع الفوضى والأقدام المتسارعة في كل مكان بحثاً عن شبح هذا القاتل الذي استطاع بقدرة لا يمكن تخيلها فعل ذلك وبوقت قصير.

- أقفلوا المكان فوراً!

قال الشرطي الذي وصل إلى بوابة الإسعاف حيث كان بعض عناصر الشرطة الآخرين يفتشون الطابق السفلي، أما الأمهات فكن يعبثن بمحيط الجريمة دون أن يتمكن الرجال من السيطرة عليهن حتى أن إحداهن انهارت على الأرض حين حملت قطعة زجاج

ART_OF_BOOK

حاولت بها مهاجمة الشرطي الذي أمسكها وأبعدها للخلف بشكل عنيف وهو يخبرها بأنه سيبذل جهده ليجد قاتل طفلها على أمل أن تهدأ قليلاً.

انتقلت الجريمة كطاعون في أروقة المستشفى والخوف تسرب في منافذ التهوية وتشربته الجدران والبلاط والأشجار الخائفة حتى الجذور، الدم صار بحراً من سلسلة لا تنتهي من المأساة، ومن خلف الأبواب، تنذر صيحاتُ الألم وبكاء الثكالى بليالٍ طويلةٍ من الأسى لن تنتهي قريباً.

انطلقت صرخات الآباء وهم يحاولون اختراق الطوق الأمني.

- «ابني... ابني هناك!»

- «دعوني أرَ طفلتي أرجوكم!»

هذا يصيح والآخر مكلومٌ يشد على يده، وأفراد الشرطة يمنعون أي أحدٍ من العبث بمسرح الجريمة، بينما تمت محاوطة المستشفى والبدء بالبحث بشكل دقيق داخل كل شبر فيه، حتى خارج أسواره الإسمنتية العالية، والغضب، الغضب الذي بدأ بكل شيء لا يمكن أن يتوقف حتى يشبع.

سقط رجلان على الأرض، أحدهما أغمي عليه، والآخر راح يضرب الجدار برأسه حتى نزف، لا أحد يريد استيعاب الحقيقة

@ART_OF_BOOK

البشعة، وفي الداخل، انكمشت منى على نفسها وجلست على الأرض قرب الباب تحاول استيعاب الأمر، ظهرها للحائط، وذاكرتها تتابع الجثث الصغيرة التي شاهدتها وكأنها تتمنى أن تستيقظ من هذا الكابوس.

- مستحيل.

همست. صوتها محشو بالذهول ودوارٌ لعين أصاب رأسها. تخيلت جسد شقيقها التوءم حين سُرق، ربما تم بيع أعضائه وتقطيعه بهذه الطريقة، ربما أكثر بشاعة. اقتحم رأسها صوت أمها وهي تضحك، لكنها تجاوزته، في كل مرةٍ تنصت لضحكاتها القاسية تصبح الألوان سوداء قاتمة ويحتل كيانها الغضب والشهوة للانتقام، لذا فكرت أنه من الأفضل أن تتحرك على أمل أن تساهم بكشف القاتل الطليق، لكن أحد الممرضين وصل وبدأ بتنظيف وتضميد يدها التي أوشكت الدماء أن تنشف فوقها.

في الجهة المقابلة، أدار سيف وجهه بعيدًا، جرب الهرب من المشهد، لكن لم يقدر، صوت البكاء الذي يحتل الممر والصرخات المتواترة المتقطعة تنخر جسده، والوقت بطيءٌ كساعة رملٍ مقلوبة تقطر قطعاً من اللحم والعيون والخوف.

ART_OF_BOOK

في القبو، مجموعة من التقنيين يعملون على إعادة وصل التيار الكهربائي، لقد اشتعل الضوء في بعض غرف العناية المشددة والتي كان الخطر يحوم في أرجائها مثل قاتل صامت، خاصةً مع الأشخاص الذين يعتاشون على الأوكسجين الصناعي والأجهزة الدقيقة المتابعة لبيانات أجسادهم المريضة التي تتوجب الحرص الشديد على أرواحهم.

ART_OF_BOOK

الحقيقة، مثل الضوء، تفضح كل شيء حتى الندوب

بعد دقائق ازداد سطوع الممر رويداً رويداً مع انتشار كثيف للكادر الأمني في أغلب أروقة المستشفى. بحث بعض أفراد الشرطة وهم يغطون الجثث الصغيرة عن أي دليل يستطيعون عبره الوصول إلى القاتل، حيث لم يترك أداة جريمته أو أي وسيلة يمكن أن تقود إليه خاصة أنه اشتبك مع المحققة ولا بد أنه ارتبك وهي تحاول إصابته وإطلاق النار.

- لا توجد أداة قتل...

خاطب أحدهم عبر جهازه اللاسلكي بصوت مختنق لكن قاطعه العقيد أحمد بصوته الشديد:

- اجمع رجال الأمن المسؤولين عن حماية المستشفى فوراً.

قال ثم أنهى الاتصال، ليعم صمت مريب للحظات والعيون تتجه إلى الممرض الذي فرغ من معالجة منى وقام بمساعدتها على النهوض حتى ترافقه إلى قسم الإسعاف ليتابع العناية بها، لكنها تمنعت عن الذهاب وأمرته بالمغادرة. ونهضت وهي تجرب التماسك واستيعاب ما حصل ومساعدة زملائها في المركز رغم أن مديرها قام بتحييدها عن القضية، إلا أن واجبها الإنساني والمهني دفعها للمساعدة.

بدأت الكاميرات التي أطفئت أثناء القطع بالعودة تدريجيّاً هي الأخرى، من ممرٍّ إلى آخر، بينما توافدت الشرطة تباعاً منهمكين بتوثيق الجريمة المرعبة، حيث الدماء لا تزال دافئة، والجدران رغم كل الضجيج تردد حروف الموت على كل كسرة زجاج، على البلاط الملطخ بالأحمر القاتم، على الدموع والآهات.

لم تكن دقائق الحادثة مجرد وقت عابر، بل زلزالاً هز المستشفى بكافة أركانه، وأثناء انشغال منى بجمع ما يمكن من أدلة وهي تعاين ثقوب رصاصاتها التي لم تتمكن خلالها من إصابة القاتل، اقتحمت سيارات إضافيةٌ للشرطة المكان، وأضاءت صفارات الإنذار جنبات الرواق وأرهقت أصواتها الهادرة بقية الكادر المرتعد في مدخل الإسعاف. تصدّر المشهد العقيد أحمد، عيناه ثاقبتان لا تبحثان عن تفسير، بقدر ما يريد الإمساك بالقاتل الذي أصبح عبئاً على الشرطة وعلى المدينة. هو يعلم جيداً أن زمام الأمور سيخرج عن سيطرته إذا ما استمرت هذه الفوضى وستحمله الحكومة اللوم وهي تدفع بشخص آخر مكانه.

تجاوز العقيد الجميع وانطلق أمامه أحد أفراد الشرطة يدله على مكان الحدث الدموي، إلى أن توقف أخيراً عند غرفة الحاضنات، وقبل أن يخطو، لمح منى. كانت تسند ظهرها إلى الحائط في الداخل،

شاحبة، يعلو خدّها تورّمٌ قاتم، ويدها مضمدة بقطع من الشاش ولا يزال الدم يتسرب عبر خيوطه البيضاء، وتستطلع الحاضنات بحذر وهي تشيح الغطاء عن وجوه الأطفال وتقف بصمت، لذا لم تنتبه لقدوم مديرها إلا حين اقترب ووقف أمامها:

- منى! من فعل هذا؟ ما الذي حدث لكِ؟

- أهلاً يا سيدي، لا أعلم فقد تسلل كالظل حين دوى صوت انفجار قطع التيار الكهربائي، لم أرَ وجهه، لكنني شعرت به. انقضّ كطيفٍ هائج، ضربةٌ واحدة كانت كافية لإسقاطي، سبقت سبابتي إلى الزناد، ثم... ثم وجدت نفسي في بركة الدماء هذه.

تفحّص العقيد الجرح في يدها، ثم أمر أحد أفراد الشرطة:

- خذها إلى غرفة الطوارئ فوراً، فلتُعاين جراحها الآن!

- أريد البقاء والمساعدة.

قلت لك اذهبي لمعالجة جراحك، سنتكلم لاحقاً.

صوته دوّى في الممر رغم محاولته إخفاء توتره، ثم خاطب رجاله عبر اللاسلكي:

- استنفار كامل! أريد تطويق كل المخارج. لا أحد يغادر دون تفتيش دقيق. أغلقوا المستشفى بالكامل، تمشيطٌ كامل حتى

@ART_OF_BOOK

للشوارع القريبة، للحارات، لحاويات النفاية، لا تتركوا شبراً واحداً!

كانت الأمهات في الخارج يراقبن العقيد والدموع لا تتوقف عن النزول، أصواتهن تعلو وتختلط بأنين الفقدان والجنون، من جهة أخرى، سار سيف بسرعة متجاوزاً العقيد الذي نظر إليه باستغراب وراقب خطواته خلف المحققة وهي تعبر رفقة أحد أفراد المركز نحو مدخل الإسعاف، وكان قد مشى بجانبها حينما نظر إلى عينيها المثقلتين بالغضب.

- لم يكن خطأك، لا تلومي نفسك.

- لقد خذلت الأطفال، لم أقصد ذلك، لا أستطيع التصديق!

حمّلت نفسها مغبة ما حدث، وسط استغراب سيف الذي لم يشأ أن يزيد عليها.

***

في الطابق السفلي، دخل العقيد غرفة المراقبة برفقة ضابطين، وهناك كان عناصر الأمن المسؤولون عن حماية المكان، وقفوا بأهب أثناء وصوله، كان وجهه أشبه بكتلةٍ صخريةٍ تتصدع من الغضب، بركان في لحظة ما قبل الثوران، ودون أن يلقي التحية،

ART_OF_BOOK

وقف أمام الشاشات، بينما بدأ أحدهم تمرير مقاطع الفيديو في أكثر من ناحية والتي توقفت حين انقطع التيار، وعادت بعد أن انتهى كل شيء.

- لا شيء؟! كل الكاميرات؟!

رد الرجل بصوت متردد:

- جاء الخلل بعد تخريب الشريط الواصل لغرفة التحكم، وذلك بعد أن غابت الكهرباء.

استدار العقيد نحوه وبدأ بتأنيبه:

- كانت مسؤوليتك تأمين المكان، لا الأعذار، كيف استطاع شخص بمفرده تجاوز الجميع بعد ارتكابه تلك المجزرة؟! القاتل مشى من أمامكم وأنتم تلقون اللوم على الكهرباء!

- لم يكن الأمر بيدنا! انقطعت الكهرباء فجأة وانتشرنا في كل مكان لكن المكان واسع وله عدة منافذ، لم نستطع تعقبه رغم قيامنا بواجبنا!

حاول الشاب الثلاثيني بوجهه المكتنز تبرير ما حصل والدفاع عن نفسه، بينما اقترب العقيد منه، عيناه تلمعان كرصاصتين.

- ستُحاسب. كل من أهمل، كل من سمح لهذا السفاح بالعبور من تحت أنوفكم، سيُحاسب.

@ART_OF_BOOK

سادت لحظة صمت مشحونة بالكراهية، ثم غادر العقيد الغرفة، دون أن ينظر خلفه.

مرّت الساعات بطيئةً حتى بزوغ الفجر، كان الضوء يتسلل باستحياء من خلف النوافذ الزجاجية المغطاة بستائر الحزن، حين جلس سيف خارج غرفة الطوارئ التي وضعت فيها منى لاستكمال معالجة جراحها. رأسه مائل على الكرسي، معطفه لا يزال رطباً، وعيناه مغمضتان، لقد خطفه النوم قسراً بعد ليلةٍ مجهدة.

ثم دوى صوت صفارة إسعاف مزق السكون. وأجفل الجميع الغارقون بخوفهم، فتح سيف عينيه فجأة. نهض على الفور محدقاً نحو باب السيارة المغلق. قلبه مرتعد يخفق بعد حالة الذعر التي أصابته، يخشى حصول جريمة أخرى تزيد من سواد المدينة. فتح الباب وتم إنزال رجل تعرض لاحتشاء قلبي وإدخاله بسرعة من قِبَل ثلاثة ممرضين.

***

قبالة منزل المحققة، مشت الممرضة في الممر الخارجي الذي يفضي إلى الدرج الصغير قبل الباب الرئيس، حملت المفتاح بين أصابعها وهي تستشعر الخوف الذي بدا أنه يُرسم فوق وجهها، فما

ART_OF_BOOK

أن وصلت للمدخل، حتى شاهدت بعض نقاط الدم على الأرض، ترددت قبل أن تدير المفتاح، لكنها تجرأت أخيراً بعد أن تنصتت بعض الوقت دون أن تتحسس أي صوت في الداخل، وما أن فعلت حتى ولجت بخطاً متباطئة، ما زال الضوء مضاءً رغم سطوع أشعة النهار التي تقتحم صالة الاستقبال رغم شحوبها، السكوت يقطر القلق. لكن الأرض لم تكن صامتة. خطٌ رفيع من الدم امتدّ على أطراف البلاط، يتلوى كأفعى مذبوحة، ويتعمق داخل أروقة البيت. لحقت به بعينين متسعتين، وذهنٍ يحاول استدراك المشهد. وصلت إلى عتبة غرفة والد المحققة.

شهقت مذعورة. البقعة الكبيرة من الدم كانت لا تزال طرية ورائحتها نفاذة.

رفعت هاتفها المحمول بيدٍ مرتجفة، وضغطت على اسم «منى». رنّ قليلاً، ثم أتاها الصوت.

- ألو؟

- أنا آسفة على الإزعاج، تأخرت بالوصول للمنزل لكنني فوجئت بالدماء. ما الذي حدث؟!

- أبي نُقل إلى المستشفى .

- ما السبب؟ ماذا أصابه؟ هل هو بخير؟!

@ART_OF_BOOK

- نعم. هو بخير لقد سقط عن كرسيه لا أكثر وقمت بإسعافه لمستشفى النور الحديث.

- أنا قادمة لن أتأخر.

قالت وهي تغلق باب المنزل وتتجه إلى الشارع وهي تنظر يمنة ويساراً في الطريق الفارغ، وقد طالت وقفتها، إلى أن لاحت أخيراً من طرف زاوية البناية المجاورة سيارة أجرة كانت تلتف للطرف الآخر من الطريق، لذا باشرت بالركض وهي تشير بيدها للسائق بالتوقف، لتفتح الباب وتصعد بأنفاسها المضطربة وهي تلفظ العنوان المطلوب كالسعال المخنوق.

***

لم يكن الفجر قد اكتمل حين بدا أن الوقت صار أسرع، رغم السكون المخيّم على المدينة، وجاء ضوء الشمس ملبداً كئيباً بينما بدأت عربات الإسعاف واحدة تلو الأخرى تتجمع عند بوابة المستشفى الرئيسة، تم إعلام الأهالي المنكوبين بنقل جثث أطفالهم إلى المشرحة لمعاينتها، ورفضوا بشدة هذا القرار المجحف لكن الأوامر كانت صارمة، يجب حل لغز القاتل حتى تتمكن الشرطة من الانتقام لمقتل الصغار، وبعد دقائق كانت الضحايا الصغيرة

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الملفوفة والموضوعة في توابيت صغيرة تُحمّل داخل السيارات التي اصطفت خلفها مركبات أخرى متشحة بدموع الآباء والأقارب، زجاجها مغبش تحجب عن الأعين المأساة والجراح التي لن تندمل بسهولة.

كان اليوم كالحاً، قررت الشمس الحداد أيضاً. ضبابٌ ثقيل التصق بجدران المباني وابتلع الحي بأكمله، حتى الهواء صار سميكاً يخرج من الصدر بشكلٍ أقرب للتقيؤ، وتحت نظرات المحققة وسيف اللذين وقفا في الخارج، تقدمت قافلة السيارات ببطء، لا أبواق، لا كلمات، فقط أنين عجلات تسير على الإسفلت وتعزف جروح الثكالى اللواتي جلسن في المقاعد الضيقة رغماً عن الإيعازات بمنعهن من الاقتراب من الجثث حتى يتم الانتهاء من فحصها في المشرحة.

عبرت المركبة الأولى ثم الثانية والثالثة حتى اكتمل العدد، محملةً بستّة توابيت صغيرة ومغطاة بشراشف المستشفى التي فصلت على قياس الأطفال الرضع لتكون دفئاً لا لعنة.

على صدى صفارات الإسعاف، خرج الناس القريبون من الشوارع المطلة على المستشفى، وهم يتهامسون بقلق وبوجوه مذعورة. وقفوا أمام أبواب منازلهم، على الشرفات، خلف النوافذ

ART_OF_BOOK

التي لم تُفتح بالكامل، يحتمون خلف جدرانهم خشية الموت الذي ينتظر الفرصة لقضاء شهوته. انهمرت دموع العجائز بلا سبب، فكرة الفقد ترعبهم مهما اختلفت طريقتها، في ناحية أخرى أطفال يمسكون بأيادي أمهاتهم، لا يفهمون ما يحدث، لكنهم يرون في عيون الكبار انكساراً جليّاً.

في الشوارع الفارغة، اختفت الألوان. كل شيء غدا رماديّاً، كأن المطر الذي تساقط بغزارة الليلة الفائتة سُكب حبراً داكناً من سماءٍ حزينة، لطّخ الأرصفة، والوجوه، والقلوب، أثناء ذلك كان الموكب يتقدّم نحو المشرحة، وفي شرفةٍ صغيرة حين كانت الأزقة تشارك أنشودة الموت وتحتضر هي الأخرى، رفعت امرأة مسنّة يدها إلى السماء وهي تتمتم بالدعاء. وقبالتها في حديقة صغيرة، أرجوحة طفل لا تكف عن الحركة، هبت الريح لتدفعها مشتاقةً للفرح. كل تفاصيل المدينة بدت متواطئة في الحداد. لا سيارات تمر. لا محال تُفتح، ولا حتى طيور تحلّق، ورغم المسافة القصيرة نسبيّاً من المستشفى إلى المشرحة، لكن الوقت خلالها تمدّد كجنازة أبدية، إلى أن وصلت أخيراً حيث ألقى الأهالي النظرة الأخيرة على ما تبقى من تفاصيل وجوه صغارهم، والغصة تلو الأخرى تشهق بالعذاب والنحيب.

***

ART_OF_BOOK

دخلت الممرضة بخطاً متسارعة، أنفاسها متلاحقة وهي تصل نحو الاستقبال، ولا تعلم سبب الوجوه المفجوعة الشاحبة حين قالت:

- مرحباً، أسعف البارحة رجل ستيني يدعى فواز حامد، أين يمكن أن أجده؟

على الفور ودون أي استفسار آخر قام الشاب خلف المكتب بإرشادها، لكن قبل أن تلتف فوجئت بأحد رجال الأمن الذي أوقفها مستفسراً عن هويتها وسبب قدومها، أجابت الممرضة دون أن تفهم سبب هذا الإجراء الاحترازي. ثم انطلقت للطابق الثالث بعد أن سمح لها بالعبور، وكل أفكارها تنصب حول الرجل المسكين.

***

لم يترك العقيد أحمد فرصة لمحاسبة كل المتورطين في الإهمال، مع متابعة دقيقة لمجريات التحقيق السابق والجديد، مع تقارير مباشرة من المشرحة التي أكدت قتل الأطفال بشفرة حادة مخصصة للعمليات الجراحية، وكان الوقت يمضي بأسرع مما يبدو، والأهالي الذين غادروا وهم ينتظرون خبراً يفضي لعدالة أطفالهم ما زالوا يتصببون حزناً وحرقة.

انتهى التحقيق دون الوصول لأي دليل جديد، لا بصمات ولا أي إثبات مادي يكشف هوية القاتل، لتأتي الأوامر بإخبار الأهالي لاستلام أجساد صغارهم الباردة بعد أيامٍ من الانتظار. لم تكن ردة فعل الناس هادئة وهم يتهجمون على عناصر الشرطة بالسباب والشتائم، الذين فعلوا كل ما يتطلبه الأمر لملاحقة الجاني.

في طرف المدينة وعند حافة التل، اصطفّت التوابيت الصغيرة في صفٍّ واحد، بعد تحضيرهم لجنازة فقيرة تمت حمايتها من الشرطة حيث لم يجرؤ الناس على القيام بواجب العزاء والخروج وسط الخوف المسيطر عليهم. وقف المشيّعون مثل تماثيل حجرية، لا أحد يتحرّك والبكاء يختلط بالضباب ويسقي الأعشاب المعفنة.

ووسط الجموع القليلة، وقف سيف وإلى جانبه المحققة حيث قال بصوت خافت:

- لا أستطيع الاعتذار للأهالي. الكلمات تُهين الموت في هذا المكان، الصمت وحده يليق به.

لم ترد منى، دفنت عينيها في التوابيت، وراحت تهمس:

- ستّ أرواح صغيرة لم يُكتب لها الحياة، أزهقت أرواحهم ببساطة!

تتبع سيف والمحققة الضباب وهو يلتهم التوابيت واحدًا تلو الآخر قبل وضعهم تحت التراب والذي كل حفنة منه سقطت على التوابيت كانت أقرب لصرخة، وصراخٌ مفجوعٌ ينتشر كالصدى في أرجاء المدينة. لا أحد بريء من هذا الموت، لا الأرض التي استقبلت الأجساد الصغيرة وقبلت موتاً بهذه الوحشية، ولا الناس المهزومون والخاضعون للخوف، ولا الهواء الذي يصر على تسميم المدينة بالكآبة.

انتهت الجنازة، انصرف بعض الأهالي، وبقي البعض الآخر في أماكنهم، لا يريدون ترك فلذات قلوبهم هذه الليلة وسط البرد والخوف، حتى منى بقيت وسيف إلى جانبها، والصمت غمر الجميع.

***

بالقرب من بوابة المستشفى حيث اصطفت دورية من المركز، كانت منى عائدة وسيف قربها كظلها، ثم توقفت تنظر للسماء وتتحسس رذاذ المطر الخفيف المتساقط، بانت يداها وهما ترتجفان بينما تفتح عبوة الدواء. أخرجت أكثر من كبسولة لم تقم بعدّها فقد بلغت حالتها سوءاً دفعها للتفكير بالموت للخلاص من هذا

الكم المرهق من العذاب. نظرت للكبسولات العديدة تنوي تناولها في خضم الهدوء الحاصل، وهدنة الكآبة الآنية، لكن يداً أخرى أمسكت بها.

- كفى.

كان صوت سيف.

نظرت إليه، وعيناها اللتان حاولتا التماسك طوال الوقت، انفجرتا بالبكاء. سقطت على حافة الطريق دون كلام، فانحنى قربها وهو يربت على كتفها، ثم أمسك يدها والمطر ينهمر، يختلط بدموعها كأنها تغرق. بينما اقترب أكثر كأنه أراد احتضانها.

- لماذا لم أمت معهم؟ لست قادرةً على المواصلة، لعنة قذرة أصابتني.

- ليست كذلك، سيقع القاتل بالتأكيد، ستأتي اللحظة التي تمكنكِ من الانتقام.

قال سيف وهو يدرك أن كلماته ليست السحر المنتظر، لكن رضاً خفيفاً تسلل لقلبه حينما رأى أنها رمت الكبسولات على الطريق في إشارةٍ لتراجعها عن قرارها. فشعر بأن السلام امتد إلى تلك الزاوية الصغيرة، إلى ذراعه التي تحتضن أنينها.

مر الوقت، ومسحت المحققة التي كانت قد هدأت قليلاً وجهها وتنهدت، ثم نظرت صوبه وهي تعلم أنه لن يتركها في محنتها الآن:

- أريد العودة للمركز.

- سأرافقك.

وصلت منى إلى مركز الشرطة، أطفأت محرك سيارتها ونزلت بهدوء بعد حوار قصير مع سيف الذي حبذ ذهابها للمنزل لتستريح بيد أن رفضها القاطع وإحساسها بمسؤولية ما وقع منعه من الإصرار أكثر، لذا ما أن وقفت قبالة الباب حتى أمسك بيدها، ولأول مرة لم تسحب يدها. لم تعترض. شعرت بأمان وجوده، ومشَت صوب الباب الرئيس رفقته، كأنها قررت أخيراً الاعتراف بوجوده، كان صمتها تلك اللحظة يوضح حقيقة ما تريد، لم يشأ سيف أن يعكر صفو اللحظة، لذا اكتفى بالصمت وهو يتحسس يدها الصغيرة الباردة التي اختفت داخل كفه.

لم تكد تخطو قدمها الباب حتى خرج زياد من المبنى، يفرك عينيه بأصابعه، أثر التعب على سحنته واضح وهو يحمل رزمة أوراقٍ في يده. ربما تفاجأ قليلاً عندما رآهما معاً، لكن الصدمة كانت الارتباك الذي أصابه حين شاهدهما ممسكين بعضهما بأيدي بعض. رغم ذلك لم تلتفت منى نحوه، بل أفلتت يد سيف لتغوص في فضائها الخاص داخل مكتبها الصغير على أمل أن تجمع شتات نفسها.

@ART_OF_BOOK

- أشكر الله على سلامتك، سمعت ما حصل.

عبرت العتبة دون أن تتوقف للرد، فقط أومأت بقبول كلماته واختفت بين زحام أفراد المركز الذي غدا مثل خلية دبابير مضطربة، بينما استدار سيف للمغادرة دون أن يضغط على المحققة. وقف في مكانه، وهو يلمح نظرات زياد له حيث يعلم بأنه غير مرحب بوجوده منذ لقائهما الأول.

- الأمور تتطور!

ابتسم سيف ابتسامة سامة خفيفة وقد فهم قصده.

- أنا في خدمة الشرطة.

- تقصد في خدمة المحققة.

قالها زياد ثم مر بجانبه حيث كان ينتظره أحد زملائه في سيارة الدورية، بينما اكتفى سيف بالصمت، ابتلع ما كان على وشك أن يلفظه وتنهد وابتعد.

- هذه أوامر العقيد، لا أعلم فقد وصلت منذ قليل.

كان أحد الضباط الذي وصل لتوه كما يبدو يتحدث عبر هاتفه، حين رنت كلماته في أذن منى، فاستوقفها حديثه قليلاً وراحت تستطلع ملامحه وتستكشف هويته قبل أن تتابع مجدداً إلى مكتبها، وبالفعل دخلت وأغلقت الباب خلفها، ثم جلست دون أن تحرك

ART_OF_BOOK

ساكناً. الضوء الخافت للشمس يزحف ببطء نحو وجهها، ويظهر شحوب تفاصيلها، ثم لم يستغرق الوقت أكثر من دقيقة حتى بدأ أفراد المركز يطرقون بابها ويقدمون التهاني بسلامتها، وواحداً تلو الآخر اضطرت لمبادلتهم التحية والابتسامة بلغت حد النفاق.

لم تصدق أن الهدوء عاد مجدداً حتى فتحت درج مكتبها لتجد عبوة قديمة من المسكنات، وجدت فيها بعض الكبسولات، ودون أن تفكر تناولت جرعتها المعتادة، وغطت في شرود مظلم، جسدها حاضر، لكن عقلها يسير في متاهةٍ لا تنتهي. ثم عاد الباب ليدق مجدداً، لم تكد ترتاح حين اقتحم أحد أفراد المركز سلامها، بيده مغلف صغير.

- بريد من أجلك أيتها المحققة، تم تسليمه لي على الباب، ولا يحمل اسم مُرسل.

قال وهو يناولها الظرف، الذي كُتب عليه بخطّ مائل:

«سري وهام. خاص بالمحققة منى».

على الفور فتحت الظرف بعد أن أمرت الفرد بالمغادرة. داخله صورةٌ مطبوعة، مأخوذة من تسجيلات كاميرات المستشفى، تُظهر شكلها وهي تمرّ في رواق المستشفى ليلة المجزرة.

وفي أسفل الصورة، بخط أحمر أنيق كتبت العبارة:

«لقد رأيت ما حصل».

توقفت أنفاسها لبرهة، شعرت بأن الصورة تشد عنقها وتخنقها، هنا بدأ الشك الأكثر قتامة يعبث بأفكارها، والسؤال يجر الآخر، وأعصابها المتوترة تظهرها يداها المرتجفتان، وتحاول استجماع ذكرياتها ليلة المجزرة، تعلم أن الكاميرات لم تُظهر شيئاً، لا تاريخ للصورة، لذا من غير الممكن معرفة ساعة التقاطها، ثم وبيأس بالغ نهضت من مكانها، الصورة في يدها، وانطلقت مباشرة نحو مكتب العقيد.

كان العقيد أحمد يُراجع بعض التقارير حين فوجئ بدخول منى مثل عاصفة هوجاء، واضعةً الصورة على مكتبه.

- ما هذه؟ ولِمَ لم تذهبي للمنزل بعد إصابتك؟

- أنا بخير، لكن وصلني ظرفٌ من مجهول، وبداخله صورة لم تُظهرها تسجيلات المستشفى يا سيدي.

نظر إليها بإمعان، كل تفصيلةٍ واضحة، إنها المحققة بالتأكيد، الملابس ذواتها والرواق ذاته الذي تمت فيه الجريمة، لذا وضع الصورة على مكتبه ونظر للمحققة وهو يفكر.

- تقصدين أن هناك من تلاعب بالشريط صحيح؟

- هذا مؤكد.

- من الذي استلمه؟

ART_OF_BOOK

أخبرته عن فرد الشرطة الذي قام بإيصال البريد، فاستدعاه على الفور، وسحب نفساً عميقاً بانتظار أن يفهم القصة. طرق الرجل الباب وولج على الفور.

- من الذي أعطاك الظرف؟

- كان شاباً يافعاً يا سيدي، وضع الظرف في يدي وانطلق على الفور لكن ما أن قرأت اسم المحققة حتى أدخلته لها، هذا ما حصل.

قال وقد ارتجف صوته كأنه شعر بأنه تورط بمسألة خطيرة، وجمد في مكانه وهو يشاهد العقيد يفتح كاميرات المراقبة ويعيد اللقطة الحاصلة، وبالفعل ظهر على الشريط شاب صغير وصل بسرعة وهو يهرول ثم توقف لإعطاء الظرف وبدأ بالهرولة مجدداً وهو يضع سماعاتٍ ضخمة وطاقية بيضاء صوفية، لم يستغرق العقيد المزيد من الوقت، حيث قام بإرساله لسحب صورة للشاب الذي يظهر أنه ذو صلة بالمسألة وتعميمها على الفور. ثم التفت إلى المحققة.

- وأنتِ.. ألم تتذكري تماماً ما حصل لحظة انقطاع الكهرباء؟

- كما أخبرتك سابقاً يا سيدي، حاولت التعامل مع الوضع، لكن الأمور خرجتِ عن السيطرة.

نظر إليها طويلاً، وكأنّه يُفكّك جملتها قطعةً قطعة، ثم قال:

- لَمَ لَمْ تخبريني حول الطبيب ممدوح سابقاً؟!

ART_OF_BOOK

صمتت منى. شعرت بطعنة خفية من زميلها زياد الذي يبدو أنه أعلم العقيد عن الأدلة التي أرادت حلها بمفردها.

- لم احتفظتِ بشكوكك، وبملفات وأدلةٍ هامة حول قاتل متسلسل يفتك بالمدينة؟

- لم يكن دليلاً كافياً بعد، لذا أردت جمع أكبر قدر من المعلومات قبل تقديم تقرير واضح.

- وهل تملكين الآن؟!

صرخ بحدةٍ وهو يضرب مكتبه، ثم وقف من مكانه:

- خلطكِ بين مشكلاتك المهنية والشخصية جعلنا نصل إلى نقطة حرجة. هذا ليس تحقيقاً خاصّاً يبنى على شكوكك، هذا ملف دمويّ مفتوح وقد استمر لسنوات وعاد بوحشية أكبر، ونحن عاجزون حتى اللحظة عن تحديد هوية مرتكب هذه الجرائم.

استمعت لكلماته الجارحة وهي تشد قبضتيها، نظرت إليه. لا يمكن شرح تفاصيل وجهها البارد. تعلم جيداً أنها أفنت نفسها من أجل القضية التي صارت شغلها الشاغل.

- سيدي... أرجوك، أنا لم أكن...

قاطعها، بنبرته الجاحدة ذاتها:

- اعتباراً من الآن، أنتِ مُحيّدة عن هذا الملف. وسيتولى المقدم مأمون التحقيق مع زياد.

سقطت الكلمات كصفعة. لم تردّ. اكتفت بالتقاط أنفاسها حيث كادت أن تنفجر، ثم التفت مغادرة. خطواتها حملت ثقل أوجاعها ومصيرها الذي تم تقريره للتو. وهي تهمس:

- «خائن لعين!»

اقتربت الساعة من الظهيرة، والشمس مختبئة خلف غيمة رمادية هائلة لا تنوي الرحيل. ربما ستمطر مجدداً وبغزارة كالليلة الفائتة، وفي هذه الأثناء كان زياد قد وصل إلى المستشفى بخطاً سريعة وهو ينهي الاتصال مع العقيد أحمد، ثم سار دون أن ينطق بكلمة. وجهه مشدود، عيناه تقيسان الزوايا والجدران والممرضين.

داخل غرفة المراقبة، عاد لمشاهدة التسجيلات على أمل الحصول على دليل جديد، أقله الوصول إلى نقطةٍ تؤكد حدوث قطع في التسجيلات، لقد شاهد جثث الضحايا بعد عودة الكهرباء، والمسرح الدموي المخيف.

- من فعل هذا ليس بشرياً! إنه شيطان!

قال وهو يتابع اللقطات من المجزرة، ثم بدأ بكتابة كل ما شاهده في تقريره، ليخرج مجدداً مع تنبيه حاد لعناصر حماية المستشفى الذين تجمعوا حوله في الغرفة وطلب منهم أن يكونوا جاهزين للحضور فوراً عند الحاجة لهم وعدم الذهاب مطلقاً خارج المدينة ريثما ينتهي التحقيق تحت طائلة المحاسبة.

صعد زياد رفقة أحد الأفراد إلى الطابق العلوي الذي تم إغلاقه مؤقتاً حيث حصلت الجريمة، كان الممر والغرف فارغة تماماً مع شريط أصفر يمنع الاقتراب، بينما تناوب شرطيان على حماية موقع المجزرة. دس الموت أصابعه الحاقدة في تفاصيل كل ما وقعت عليه عينا زياد و فرد الشرطة المرافق، حتى رائحة الدماء علقت في الهواء مثل لعنة لا يمكن الفكاك من قبضتها.

تم جمع البيانات المطلوبة والتدقيق جيداً في كل تفصيلة شاردة، وما أن فرغا من مهمتهما حتى انتقلا للأسفل، نحو القبو، أراد زياد تفقد موقع تخريب الكهرباء، الليلة التي أخرجت الوحش في الظلام.

سارا معاً عبر الممر الخلفي، ثم نزلا بخفة وقد أشار زياد في طريقه لأحد عناصر الأمن لمرافقته.

- هنا بدأ كل شيء!

قال حين تجاوزت أقدامه الباب الذي يقع قبالة القواطع والشرائط المتآكلة بفعل الحريق.

***

ART_OF_BOOK

في الجهة الأخرى من المدينة، أغلقت منى باب مكتبها خلفها كمن يُغلق على نفسه تابوتاً، جلست بتوتر لبعض الوقت ثم نهضت بسرعة وخرجت بعد أن شعرت بضيق شديد يكاد يحطم عظام صدرها. مرت أمام زملائها دون أن تنظر إلى أحد، وتابعت إلى الرصيف حيث صعدت في سيارتها وانطلقت مسرعة، الهواء بارد يلفح وجهها. لم تؤثر الجرعة الأخيرة التي تناولتها، لذا انطلقت للبحث عن صيدلية قريبة ما زالت تعمل حتى تتمكن من شراء عبوة جديدة.

بعد البحث لأكثر من نصف ساعة، والشوارع المقفرة تثقل كاهلها، والمحال المغلقة قد أعلن جميع مالكيها الحداد والخوف وأغلقوا أبوابها إلى أجلٍ غير مسمّىً. الناس يحتاجون للطعام والدواء، ستكثر الوحوش والقتلة قريباً إن استمر هذا الجنون، أما منى وبعد أن شعرت باليأس فتوقفت لحظة، جدقت في الشارع الممتد أمامها والذي أكد خلوه من الناس، ثم حملت هاتفها واتصلت.

- سيف، أعتذر عن إزعاجك لكن ماذا تفعل؟ أيمكنك مقابلتي الآن؟

لم تنتظر منه سوى الموافقة رغم صوته المرهق حتى تعود أدراجها إلى المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه، كونه يقبع قبالة مكان

عملها ويحظى بالحماية نوعاً ما، رغم أن أغلب زبائنه حالياً من أفراد الشرطة فقط. بعد دقائق، كان سيف يدخل المقهى، ووجدها تجلس في الزاوية، المكان ذاته، لكن النظرة مختلفة. اقترب وجلس بصمت.

- أشعر أن كل شيءٍ ينهار من حولي، لا أستطيع الصمود.

- هل من جديد؟

- حيّدوني عن القضية. تم عزلي عنها كأنني مرض معدٍ. لكنني لن أتوقف. سأتابع عملي لأن القاتل يعرفني أنا متيقنة من ذلك ولن يوقفه إبعادي عن التحقيق.

نقلت آلامها إلى مسامعه، وهو يستمع بتركيز، رغم أن جسده يخفي تعباً يرهقه.

- لا تقلقي أنا بجانبك، سأساعدك مهما كلف الأمر.

بعد سماعه، تابعت منى الشرح:

- الطبيب ممدوح...

همست كأنها تبوح بسرٍّ يجب أن لا يُقال في العلن.

- لدي معلومات مؤكدة عن تورط طبيب اسمه ممدوح كان يعمل في مستشفى النور القديم، حيث قيل بأنه خطف بعض الأطفال وقام بالاتجار بهم.

ART_OF_BOOK

صدم سيف للوهلة الأولى من المعلومات الجديدة، مما جعله يتحمس لسماعها أكثر، فلم تتوقف عن سرد شكوكها نحو الطبيب الذي تجهل مكانه بعد أن قام بتزوير وفاته، وتابعت ربط الحوادث بعضها ببعض، وقد أعطت ثقتها الكاملة لسيف، وشعرت بأنه الوحيد القادرة هي على الوثوق به.

- سأساعدك، لكن علينا الحذر. من أخرجك من القضية لن يتردد في تجريمك إن شعر بأنك أصبحت مصدراً للشك، خاصة بعد إخفائك لتلك الدلائل.

شعرت منى بثقل المهمة، لكنها عقدت العزم على إنهائها بأي شكل كان، ثم نهضت عن كرسيها، وتوجهت نحو الباب.

- أريد العودة للمنزل.

- ألن تذهبي لرؤية والدك؟!

- لست بحالة تسمح لي بالذهاب الآن.

- سأرافقك إذاً.

انطلق معها إلى السيارة، وكانت لحظة صمت تحيطهما. ركبت منى في المقعد الأمامي، بينما استدار سيف حول السيارة ليدخل. لكن قبل أن يفتح الباب أخرج هاتفه من جيبه وأغلق زر التسجيل النشط. ترك الهاتف يسجل كل ما دار بينهما في المقهى. فعل ذلك

عمداً دون سبب واضح، ثم عبر نحو المقعد وهو يحني جسده الطويل، ليغادرا بعدها معاً.

***

في القبو السفلي للمستشفى، وقف زياد أمام لوحة القواطع الرئيسة التي أعيد ترميم أجزاء منها بوصلات خارجية مؤقتة. اقترب منها وتفحصها بدقة. رائحة المعدن المحترق لا تزال عالقة في المكان، والجدران ملوثةٌ ببقع سخام خفيفة. أشعل عنصر الأمن كشافاً يدوياً صغيراً وسلطه على مركز العطب.

- هنا.

انحنى زياد، أمعن النظر. الشريط المغلف البلاستيكي المتصل بالقاطع الرئيس يبدو ممزقاً بخطٍّ مستقيم وواضح. هو المسبب للضرر الذي نجم عنه انصهار الأشرطة الكهربائية.

- يبدو أنه استخدم سكيناً.

قال وهو يتفقد الحواف حيث الأثر الواضح لحز أداة حادة. قد تكون سكيناً أو مشرطاً، لكن ليست كماشة، أي أن تلك الأداة ربما كانت من داخل المستشفى. فكر قليلاً في احتمال أن يكون القاتل طبيباً متمرساً يعمل في المكان، وله علاقة بالجرائم السابقة، قد يكون عمل

أيضاً في المستشفى القديم كونه يحمل الاسم ذاته، ونقل معه سجله الإجرامي ليعود مجدداً لممارسة هوايته المفضلة. استقام واقفاً، ألقى نظرة سريعة إلى الجدران حيث تم تلويث المكان بعد إعادة اصلاحه، فلم يعد بالإمكان إيجاد أي بصمة تساعد على تتبع المجرم. نظر إلى السقف المتقشر بفعل الحرارة ثم دوَّن بعض الملاحظات وغادر.

***

توقفت سيارة المحققة أمام منزلها. أطل أحد الجيران عبر نافذة منزله ثم عاد للداخل، ترجل سيف ليتبع منى التي ما أن فتحت الباب، حتى لحقها إلى الداخل. خلعت سترتها وقامت بوضعها على المشجب خلف الباب، ثم جلست تستريح على الكنبة.

- سأعد القهوة.

قالها وكأنه أصبح فرداً من المنزل، بينما اتجه إلى المطبخ الصغير.

أشعل الموقد ووضع الركوة، لتفوح بعد دقائق رائحة البن وتنتشر، بالمقابل فقد أراحت منى رأسها للخلف وهي تستجر أفكارها. ملامحها مرهقة وشاحبة، يديها مطويتان بعضهما على بعض بصمت. ثم رنّ هاتفها.

- نعم؟

أجابت المحققة، بينما جاء صوت الممرضة متوتراً:

- مرحباً، أنا مضطرة للمغادرة للمنزل، لكن أخبرني الطبيب ممدوح الذي يعتني بوالدك بأن حالته مستقرة، وبإمكانه الخروج، لكنه بحاجة توقيع من أحد أفراد العائلة.

- الطبيب ممدوح؟!

- نعم هكذا اسمه، هل هناك خطب ما؟

- لا لا، شكراً لك. سأذهب بنفسي. يمكنك المغادرة.

- هل أنتِ بخير؟

- نعم لا تقلقي.

أنهت المكالمة، نظرت إلى سيف الذي انتبه للاسم أيضاً، ثم إلى الفراغ فوقها، وأغمضت عينيها لثوانٍ فقط وهي تفكر.

أحضر سيف القهوة. وضع فنجاناً أمامها.

- هل تعتقدين أنه الطبيب ذاته؟

أخذت الفنجان ببطء، تذوقت أول رشفة، ثم همست:

- لا أعلم، أشعر بأن رأسي سينفجر، يجب أن أذهب للتحقق.

- لا بأس سنذهب معاً لكن أنهي فنجان قهوتك الآن.

ظل سيف جالساً قبالتها، يدرك حجم الفوضى التي تعبث بكيانها وعقلها، لذا أخرج من جيبه علبة دواء جديدة، ووضعها أمامها.

- لقد أجبرتني على رميها في الصباح!

- أعلم ذلك، لكن هذا نوع آخر لا يسبب الإدمان وسيشعرك بالراحة.

أمسكت العلبة وبدأت تتفحصها، كانت مجرد مسكنات عادية لذا فتحت الغطاء وأخرجت حبتين ودون أن تفكر ابتلعت الجرعة، وسيف استمر في احتساء قهوته ووجهه يحمل ابتسامة خفيفةً تعكس رضاه عمّا يفعله لأجلها.

- سأدخل الحمام، وسنغادر بعدها.

قالت وهي تنهي شرب قهوتها بينما أومأ سيف بالقبول وقام بإخراج هاتفه لتصفح بعض الأخبار. أما منى فقد غابت دقائق وخرجت، أمسكت بمفاتيحها وحقيبتها.

- أنا ذاهبة.

- أعتذر منك، تذكرت أن عليّ القيام بإنجاز عمل هام، لن أتمكن من مرافقتك، لكنني سأكون حاضراً على الفور إن لزم الأمر.

نظرت إليه وهي تعلم أنها أثقلت كاهله. لذا لم تمانع ذهابه مطلقاً،

وهي تستشعر راحةً غريبة مرت بها في السابق بعد تناولها إحدى جرعاتها. خرجا أخيراً بعد أن جلبت سترتها وافترقا في الخارج حيث جربت مساعدته وإيصاله إلى وجهته لكنه أصر على أنه يحبذ الذهاب مشياً. وصلت إلى المستشفى، كان المساء يزحف بثقله ليدثر مشاق وهموم الناس. المكان لا يزال تحت الحراسة المشددة، كسائر المدينة، وقد تجهز عناصر الشرطة في سيارتهم الرابضة أمام المدخل لأي طارئ وهم يقفون الآن بأعصاب مشدودة على أمل أن يصل خبر جديد يثلج صدورهم عن القاتل.

دخلت منى على عجلة وتوجهت إلى الغرفة التي يقبع فيها والدها. يمكن رؤيته في الزاوية، لا تعلم لمَ تم وضعه داخل الكرسي المتحرك، لكنه ظل يُحدّق في الأعلى، في اللاشيء كأنه ينتظر سقوط السقف فوقه. تبدو ملامحه كوجه شخصٍ محكوم بالموت مع الضمادة التي تغطي أنفه المكسور. حرك رأسه ببطء إلى أن وقعت نظراته على ابنته، التي جمدت في مكانها. لم تكلمه لكنها شعرت مجدداً بأن أعصابها مشدودة كحبل مشنقة، كان من الأفضل أن ترتاح قليلاً في المنزل قبل مجيئها. استدارت للخارج حين استشعرت مرور أحد الممرضين.

- أين يمكنني إيجاد الطبيب ممدوح؟

ART_OF_BOOK

صفن الشاب قليلاً وهو يستذكر مكان مكتب الطبيب المذكور، ثم قام بإرشادها حيث انطلقت على الفور لمقابلته في الطابق الأرضي. ضربات قلبها مرتفعة، لا تعلم إن كان هو ذاته الشخص المطلوب لذا تحضرت وتأهبت جيداً لرؤيته حتى أنها تحسست مقبض سلاحها قبل الولوج إليه. طرقت الباب وعبرت صوبه بعد أن سمعت صوته يخبرها بالدخول، ثم وقفت للحظات كأنها أصيبت بالشلل.

- هل أنتِ بخير؟ كيف أساعدك؟

قال لها حين رآها شاردة الذهن تعاين شكله. كان الطبيب شاباً صغيراً في السن ربما خريجاً حديثاً، لذا اضطربت مشاعرها، وغمرها اليأس بشدة تلك اللحظة.

- أردت شكرك على عنايتك بأبي لا أكثر.

استفسر الطبيب عن هوية المريض المقصود، ودار بينهما حوار لطيف قبل أن تغادر مجدداً بمشاعر منكوبة. عادت إلى غرفة والدها، لا تزال تعابيره خالية، ولا يبدو سعيداً برؤيتها، بل ظهر ارتباك واضح على وجهه حين تقدمت منه، لتبدأ بدفع كرسيه للخارج، إلى أن وصلا إلى باب الاستقبال فوقعت منى بعض الأوراق وانطلقت صوب سيارتها.

أشارت بيدها لأحد الممرضين لمساعدتها على نقل والدها

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

للمقعد، فتقدم الرجل بسرعة وأعانها على حمله ثم مرراه ببطء عبر الباب الخلفي، ووضعاه على المقعد الذي كان لا يزال ملطخاً ببقع باهتة من الدماء.

سحبت نفساً عميقاً، وهي تعيد الكرسي إلى الممرض وتشكره. انطلقت السيارة عبر الطرقات الخالية من الحياة. تمعن والدها بحزن بالمتاجر المغلقة، نوافذ البيوت الشاحبة، لا أثر للسيارات ولا المارة. الخوف أجبر الجميع على الجلوس في منازلهم. عند الوصول، فتحت منى باب المنزل، دخلت لإحضار الكرسي المتحرك ثم عادت مجدداً. كان شاقّاً عليها إدخال والدها للمنزل خاصةً بسبب جرحها الكبير في كفها والذي نزف مجدداً بشكل مؤلم. نجحت في النهاية وانتهت بوضعه في السرير، ثم بدأت بتنظيف الغرفة من الدماء والفوضى وبدلت الشراشف الملوثة وخرجت للمطبخ لتعد بعض العصير له.

انتهى اليوم أخيراً، لا تعلم ما يجري داخل مكان عملها، لم يتفقدها أحد ولا تدري أين وصلت التحقيقات، فكرت وهي تدخل إلى غرفتها، ثم أنارت المصباح، ونظرت لبقايا الصندوق المتناثرة، إلى جواره توجد المطرقة، والمفكات المتناثرة. اقتربت منه، وقفت تنظر إليه. يدها ترددت في الإمساك بالمطرقة. علمت أن الوقت ليس مناسباً. يمكن للحقيقة أن تنتظر حتى الغد، لذا

ART_OF_BOOK

أمسكت الصندوق، وضعته قرب سريرها، وجلست تشاهده بفضول غامر، وهي تتخيل ما يمكن أن تجده في الداخل.

وبينما أرخت رأسها للنوم بعد أن تحسست ذبول جفنيها وانسدالهما الشديد، اخترق رأسها ألمٌ قويٌّ مفاجئ مثل رصاصة حارقة. ضغطت جبهتها بكفّها، لم يجئ الصداع متدرجاً، بل نزل كالصاعقة. نهضت بصعوبة نحو الصالة، اتجهت نحو الطاولة حيث تركت علبة المسكنات، فتناولت كبسولتين، ابتلعتهما على الفور، ثم عادت إلى غرفتها، جلست على طرف السرير. بعد دقائق، بدأ الألم يخبو بالفعل، كأن الصداع انطفأ. ارتمت للخلف لتضع رأسها فوق وسادتها وأغلقت عينيها، والصندوق بجوارها ينتظر مثلها بحرقةٍ مجيء الصباح.

كانت الليلة ساكنة على نحو غريبٍ، لم تشهد فيها منى أي كوابيس أو أحلام مزعجة، لم تستيقظ فزِعَة كما اعتادت في أيامها الأخيرة؛ بل غفت بهدوء عميق كأن شيئاً داخلها قرر أخيراً أن يمنحها استراحة مؤقتة من كل ما يعصف بها، وجاء الصباح، فتحت عينيها دون أن تسمع منبه هاتفها، ولا أي صوت آخر، فقط شعور نادر بالسلام أشبه بالغمامة الرمادية الثقيلة التي انزاحت عن روحها، فنهضت دون تردد، دخلت إلى الحمام، غسلت وجهها بالماء

البارد، وعادت لتعد فنجانًا من القهوة دون أن تنظر إلى الساعة، فالشمس كانت تتسلل عبر نافذة الصالة دون ضجيج، والهدوء كان جميلاً أشبه بضمادة خفية تغلف روحها بما يشبه الغفران. وضعت الفنجان على الطاولة في وسط الصالة، جلست على الكنبة الجانبية، وعيناها تستقران على باب غرفة والدها المغلقة، كل التفاصيل كانت تمر بخفة، دون جهد، كأن الحياة قررت أن تكون سلسة ولو لبرهة.

لكن ذلك الهدوء انكسر فجأة حين تذكرت أنها لم ترَ الصندوق أثناء خروجها من غرفتها. نهضت على الفور، أخذت نظرةً سريعة جانب سريرها وأسفله، التفت للداخل بحثت حول الطاولة وخلفها. ثم نهضت بسرعة، التفت مثل إعصار في الفراغ وتفقدت الغرفة مجدداً، قلّبت الوسائد، رفعت الغطاء، بحثت في خزانتها ويداها ترتجفان. زحف غضبها عبر شرايينها، ثار جنونها. وهرعت إلى غرفة والدها حيث دفعت الباب، وأصيبت بالصدمة.

والدها الذي جلس على كرسيه وحده، والصندوق بين يديه، كانت عيناه تحدقان بها بطريقةٍ غريبة خالية من الطمأنينة، نظرة مشوهة لا تشبه ملامحه المعتادة، وتتسم بشيء من اللؤم ومن الحقد، وابتسامة باهتة ترتسم على وجهه كأنها قناع صنع بعناية لعرض مرعب على وشك الحدوث.

ART_OF_BOOK

- ماذا تفعل؟!

نطقتها بتردد وهي تتقدم بهدوء نحوه كأنها تنتظر منه الإجابة، لكنه لم يرد، بل حمل الصندوق ورماه مباشرة على وجهها. ارتطم بها بقوة، وأوقعها على الأرض، لم تصدمها الضربة التي أصابت ضمادتها أكثر من تصرفه المريب، ارتبكت وهي تهم بالنهوض لتحوّر نظرها نحو الصندوق الذي اهتز قبل أن ينفتح بخساسة، اقتربت بهدوء إليه، وتراجعت مذعورةً للخلف، لا يمكن لتعبير أن يصف إحساسها، خاصةً حين رأت وجه والدتها ينبلج من داخله.

لم يكن كما تعرفه، بل تمثال مريب مشوه عنها، كأنما صُنع من شمع ذائب. عينان جامدتان، نظرة ميتة، وملامح ثابتة لا تبتسم ولا تغضب، ثم بدا وكأن كامل جسدها يزحف للخارج، شعرها مبتل، ويداها تمسكان بأمواس جراحية طويلة تلمع، وهي تسير نحو منى التي حاولت الزحف للخلف لكن أطرافها التي تشبثت بالأرض لم تطاوعها على الحراك. غدت منى قطعة من البلاط البارد، جربت الصراخ لكن صوتها كان مخنوقاً في صدرها، حجزت حنجرتها كلماتها كزنزانة مزدحمة.

أمسك والدها بيدها وسحبها، رفعها كما لو أنها لا تزن شيئاً، ثم طرحها فوق السرير. وفي اللحظة التي جلست فيها والدتها قرب

وجهها كانت قد ثبّتت رقبتها، وبدأت تمزق قميصها بشفرة طويلة، ثم تبعتها شفرة أخرى شقت ذراعها، شعرت بألم الشرخ الطويل الممتد فوق الجرح دون أي نزيف، شهقت منى بكامل قدرتها، أرادت أن تنفجر صياحاً وتهرب والخوف يتآكلها من الداخل، لكن كل شيء في كيانها كان مشلولاً، لا فرصة للنجاة، ضحكات أمها وهي تعبث برأسها أصابتها بالجنون.

لم ينتهِ الجنون، ربما كان قد بدأ الآن حقّاً، بعد أن شقت والدتها بطنها ببطء، فتوغلت أصابعها تبحث بداخله، وهي تسحب جزءًا من الكبد. قطعت حفنة صغيرة منه، وبدأت تمضغه ببطء أمام عيني منى التي لا تعي ما يجري، ولا تملك سوى البكاء بحرقة والعذاب الذي تتحمله مجبرة، دون أن تفقد وعيها.

بعد لحظات، بدأ الصندوق يفيض بأجساد صغيرة، مغطاة بأقمشة المستشفى البيضاء، الملطخة بدماء طازجة. أطفال رُضّع، يخرجون من العتمة واحداً تلو الآخر، أعينهم مفقوءة، أفواههم ترتجف، وأصواتهم تمتزج بالبكاء والصرخات وهم يحملون بين أيديهم صوراً لجثث أخرى ممزقة. اقترب أحد الصغار منها، وجهه مشقوق وجسده بارد أزرق، وهمس بصوته الخائف:

- «ما هو ذنبنا؟!»

تبعه صوت آخر، وثالث، يردد الكلمات ذواتها، ثم بدا أن أجسادهم الصغيرة تتفسخ وتتساقط وهم يدوسون فوقها فتقع قطع اللحم في كل ناحية، وصولاً إلى وجهها، إلى أن امتلأت الغرفة بالأشلاء الصغيرة، ووجوههم تصرخ وتتوسل للنجاة، اختنقت منى بالدماء النازفة عبر فمها المفتوح. أرادت أن تموت تلك اللحظة وأن ينتهي كل شيء، لكن عقلها ظل مستيقظًا، مُرغمًا على مشاهدة كل تفصيل حتى النهاية. وبين صراخ الأطفال، ومضغ الأم، وضحكات الأب ونظراته المرعبة، شاهدت الخيال الأسود ذاته الذي ظهر في مرآة المستشفى، فأغمضت عينيها لوهلة قبل أن تفتحهما مجدداً وقد استيقظت والعرق يتصبب منها كشلال بارد، أنفاسها متسارعة وذراعها ترتعش بشدة. لم يكن واقعاً، كان كابوسًا جائراً آخر أقرب للحقيقة وأشد رعباً، مرّ عليها الوقت مثل ساعات من التعذيب المتواصل. التقطت أنفاسها بصعوبة، وجهها المبلل بالعرق وملامحها المنهكة، لم تمنعها من النظر إلى يدها اليمنى. وهي ترى آثار الخدوش الحمراء الطويلة، وبعض الدم الجاف يلطّخ أصابعها. السرير بدوره تلوث ببقع حمراء تسلّلت من الحلم القاتل.

حاولت النهوض لكنها أحسّت بوجع في بطنها، ألم واضح يشبه أثر ضربة أو طعنة عميقة. رفعت قميصها ببطء وتفقدت مكان

الألم، فوجدت كدمة زرقاء كبيرة، محاطة باحمرار باهت. رفعت يدها الأخرى لتتحسسها، وهي تتفحص جرحها السابق، ووقفت بتردد وخطواتها حذرة وقد ظنت أنها مقيدة حتى اللحظة في الكابوس ذاته، سارت تتكئ على الجدار وهي تلمح الصندوق في جوار سريرها، ثم مشت إلى غرفة والدها. الباب كان مواربًا، ربما نسيت إغلاقه الليلة الفائتة. فتحَتْه بهدوء وتسللت بخفة. الرجل جالس على الكرسي ذاته، لكنه لا ينظر إليها. كان يحدّق في الأرض، جسده منكفئ قليلًا إلى الأمام، ووجهه جامد والدموع تملأ خديه، ورائحة غريبة انبعثت من حوله، كانت نفاذة، تذكر منى أنها وسط إهمالها وحالتها النفسية السيئة نسيت أن تأخذ والدها إلى الحمام الليلة الماضية.

لم تقل شيئاً بل اقتربت منه ببطء، وضعت يدها على ذراعه لتحمله، لكن الألم في يدها جعلها تتراجع. حاولت مجدداً وبصعوبة بالغة دون أن تتمكن من رفعه، إلى أن سمعت الباب وهو يفتح حيث تنفست الصعداء وأسرعت نحوه، لقد وصلت الممرضة أخيراً، لكن قبل أن تعبر راحت تعاين حالة منى السيئة والخدوش على ذراعها.

- صباح الخير، ما هذه الجروح؟

قالت ثم انتقل ذهنها إلى رائحة الغرفة القوية التي وصلت إليها، وأجبرتها على الإسراع للداخل. حاولت منى شرح نسيانها، لكن

المرضة التي هرعت لمساعدة الرجل لم تهتم بتبريرها، بل طلبت منها مساعدتها على نقله للحمام وتنظيف الغرفة.

- يدكِ تنزف.

أعادت المرضة تذكير المحققة بالدماء التي رشحت عبر الشاش الأبيض بشكل واضح.

- نعم، أريد مساعدتك في تضميدها، بعد الانتهاء من تنظيف المكان.

لم يكن الموقف هيناً على الرجل الذي انكفأ على نفسه والدموع مكتنزة داخل عينيه، لذا بعد أن تمت العناية به، أشاح بوجهه عنهما وانزوى داخل سريره، أما في الصالة فقد عاينت المرضة جرح المحققة وقامت بتنظيفه وتضميده، لكنها استغربت عدم التئامه حيث بدا أنه جديد تماماً بشكل مريب. بعد أن انتهت نهضت منى واتجهت إلى المشجب، أخذت سترتها بعد أن كانت قد ارتدت ملابسها، وغادرت المنزل.

لم تحضر هاتفها، ولم تتفقد الشارع الفارغ. فقط باشرت المشي دون أن تضع لها مساراً واضحاً، فلم تكن تنوي الذهاب للمركز، أو المقهى، لم ترد أن ترى أي أحد، فقط كانت تنوي الاختفاء والابتعاد عن كل شيء، عن كل ما يذكرها بالعذاب الذي تضطر لمعايشته.

***

في أحد أطراف المدينة، كان زياد يقف بجوار السيارة السوداء الصفوفة أمام بناء قديم متقشر الطلاء. بجانبه وقف الضابط الجديد مأمون الذي أُرسل خصيصًا لمتابعة هذا الملف، إنه رجل طويل، هادئ النبرة، ذكي للغاية وسجله حافل بالاعتقالات، كانت عيناه تفحصان المنطقة التي زارتها منى منذ فترة وجيزة.

- هذه الأزقة كانت جزءاً من تحرّيات المحققة.

قال زياد وهو يشير إلى الأبنية المتراصة التي يمكن أن يختبئ فيها الجرم دون أن يتمكن أحدٌ من تعقبه.

- هل جربتم تفتيشها؟

- كانت تنوي ذلك لكنها لم تحصل على الوقت الكافي، فقد حصلت بعض الإشكاليات التي تسببت كما تعلم بإبعادها عن القضية.

- هل هناك تفاصيل أخرى لا أعلمها؟

فكر زياد بكلماته للحظة قبل أن يتابع حديثه:

- إنها ممتازة ونشطة في عملها، لكنها وقعت تحت وزر ضغط شديد خاصة بعد معرفتي القصيرة بها. لقد أوصلتنا بعض المؤشرات إلى أن القاتل كان يستهدفها شخصيّاً، أو يحاول استفزازها، مع تعمده ترك إشارات لتصل إليها.

استغرب مأمون كلماته، لذا طلب منه الشرح أكثر، حيث رد زياد معترفاً بالقصاصات التي أخفتها منى، محاولاً تبرير تصرفاتها، إلا أن النتائج كانت مغايرة لنواياه.

- كيف يمكن إخفاء هذه المعلومات؟! أين هذه القصاصات؟

لم يستطع زياد ذو الجانب الوصولي بعض الشيء الاستمرار بإخفاء ما يعرفه، أو ربما تقصّد تبرئة نفسه، حتى يظل في دائرة الأمان حتى لو اضطر للتخلي عن المحققة، أثناء ذلك حمل الضابط هاتفه للاتصال بالعقيد والإبلاغ عن الأمر، الأخير الذي فوجئ بالمعلومة الجديدة قام بالاتصال بالمحققة، ظل الهاتف يرنّ، لكن دون رد. كرر الاتصال عدة مرات دون أي إجابة.

في المنزل، كان الهاتف على سرير منى، يضيء باسم العقيد أحمد وينطفئ، بينما جلست على مقعد حجري في شارع بعيد، عيناها تطوفان في الفراغ، وداخلها ألف سؤال مربك لا حل له.

لاحقاً، وصل الضابط مأمون إلى مركز الشرطة، خطواته ثابتة ونظرته تكشف الغضب الذي يحمله بعد تلقيه تلك المعلومة الهامة. دخل المبنى دون أن يرد على تحية فرد من أفراد المركز مر بقربه متوجهاً بعزم إلى مكتب العقيد أحمد. الباب كان نصف مفتوح، طرقه احتراماً ودخل دون أن ينتظر إذناً لاستقباله. حيث جلس

العقيد خلف مكتبه، يتصفح تقريراً مبدئيّاً حول حادثة التخريب في المستشفى، ثم رفع عينيه ما أن رأى مأمون.

- أليست هنا؟

- حاولت أكثر من مرة دون رد منها.

- هل أرسل أحداً لتفقدها وإحضارها؟ قد تكون في خطر بعد ما أخبرني زياد بأن القاتل يترصدها.

صفن العقيد قليلاً وهو يحلل كلام المقدم ثم فتل شاربه العريض ورفع هاتفه مجدداً، جرب الاتصال بها لكن أيضاً دون رد.

- كيف يمكن لها أن تخفي معلومات حساسة كهذه؟! سأحيلها للتحقيق بعد الانتهاء من حل معضلة هذه الجرائم البغيضة، يوماً وراء الآخر يزداد الخناق علينا، من الإدارة العليا ومن الشارع الذي على وشك الانفجار، لن ينجيهم سجنهم الإرادي داخل منازلهم من الخطر.

تنهد بقوة حين أنهى حديثه ثم ضرب بيده على الطاولة، نهض واقفاً، وبدأ يتمشى داخل المكتب مثل ثور هائج.

استدار العقيد صوب زياد الذي دخل لتوّه، وسأله بنبرة حادة:

- كنتَ تعرف، أليس كذلك؟ هل كنت تتعاون معها؟!

لم يجرؤ زياد على مواجهته، إنه يعلم جيداً حالة الجنون التي تصيبه

إن حاول أحدهم التبرير أو الإنكار، خاصة إذا كان على معرفة تامة بالحقيقة، لذا أبقى نظره منخفضاً إلى أن انتهى قائده من تأنيبه وتنفيس غضبه.

- أنا جديد في المركز يا سيدي، قمت بتعييني تحت إمرتها لذا لم أستطع تجاوزها وإعلامك بسير التحقيق، ولم أعلم أصلاً أنها ستخفي المعلومات، ظننت أنها تطلعك بشكل مباشر على كل جديد.

- ظننت!

قاطعه العقيد، بينما التف زياد حول نفسه كأفعى تتلوى وهو يجرب بكل ما أمكن تبرئة نفسه

- اذهب إلى مكتبها. أحضر كل ما تركته، أي دفاتر، مستندات وملفات، أي شيء له علاقة بالتحقيق.

قال ثم أشار إلى مأمون:

- وأنت رافقه إلى منزلها. أريدها هنا على الفور!

بعد دقائق، كان زياد قد جمع كل ما يمكن من المكتب ووضعه أمام القائد، ثم خرج حيث انتظره المقدم داخل السيارة وانطلقا على الفور وبسرعة بالغة، وهما يشقان طريقهما إلى منزل المحققة. حين وصلا، شاهدا سيارة منى المتوقفة قبالة المنزل، ثم نزل زياد بسرعة

وتبعه المقدم، وبدأ الطرق بشدة على الباب عدة مرات، حيث فتحته المرضة وهي مذعورة.

- أين المحققة؟!

- منى... ليست هنا... خرجت قبل ساعة تقريباً. ظننت أنها ذهبت إلى العمل.

نظر زياد إلى مأمون، ثم إلى عتبة الباب وصولاً إلى صالة الاستقبال، وهما يحاولان رصد المنزل خشية أن تكون مختبئة في الداخل.

- هل كانت بحالة جيدة؟

- لا أدري. كان وجهها مرهقاً، لا تزال تعاني من إصابتها الأخيرة.

أومأ مأمون ببرود.

- شكراً لك. سننتظر قليلاً.

قال وقد استدار نحو السيارة حيث همس لزياد للحاق به.

- ماذا لو لم تظهر؟

- سنبحث عنها، إنها في خطر بالتأكيد، ربما كانت مشوشة الذهن حالياً لذا من واجبنا حمايتها.

ART_OF_BOOK

جلسا داخل السيارة بعد انتهاء حديثهما، وهما يرصدان أي حركة على طول الشارع، لكن الانتظار طال دون أن تظهر المحققة. بدأ المقدم التواصل مع بعض الدوريات للاستعلام عن رؤيتها، فالوقت يمضي بسرعة لكن جاء الرد بالنفي من جميع الدوريات القريبة. زياد يطالع هاتفه بين حين وآخر، وهو يستطلع بعض الأخبار التي تتحدث عن مدينة الأشباح، التي غدت منطقة منكوبة.

- ما رأيك بأن نبدأ جولة بحث سريعة أفضل من الانتظار دون فائدة؟

- من أين سنبدأ؟

- من الطريق الذي كانت تسلكه نحو العمل.

اتفقا فعلاً على تفحص الشارع باتجاه المركز، حيث توجد بعض المقاهي والحدائق التي يمكن أن تلجأ المحققة إليها، وتحركا ينظران حولهما، ويعبران الدورية تلو الأخرى، أوقفا بعض المارة الذين كانوا يقودون سياراتهم بسرعة، سألا عن امرأة بملامح تشبهها، لكن الردود كانت سلبية مع خوف واضح على محياهم وهم ينتظرون الانطلاق مبتعدين.

***

@ART_OF_BOOK

لا تبحث عن الأجوبة بين القبور

فهي تعرف كيف تدفن أسرارها جيداً

ART_OF_BOOK

عبرت منى الأزقة الضيقة وهي تتجنب الدوريات المحيطة، خطاها ثابتة ولكنها تمشي بلا هدف، كأنما تعبر داخل حلم آخر. عيناها ترصدان النوافذ والأدراج الصغيرة. آثار الجروح التي تركها الكابوس الليلي ما زالت قائمة، ملمس الجلد خشن، وألم الكدمة في بطنها لم يختفِ. كل شيء فيها يوحي بأن ما حدث لم يكن مجرد حلم. إنها تنتظر أن يخرج لها القاتل، لكنها نسيت سلاحها حيث امتدت يدها لتتفقده وعادت لوضعها السابق، فلم تتراجع بل جعلت من نفسها طعماً على أمل أن تقابل غريمها.

عادت الأصوات لتعبث بذاكرتها، مع صورة الصندوق، وجه أمها، يد والدها التي جرّتها، وصرخات الأطفال... التي لم تُمحَ، وقبل أن تفسح المجال للرعب أن يدب بقلبها، أخرجت علبة الدواء وتجرعت حبتين ثم تابعت المسير.

في المنزل، وقفت الممرضة أمام غرفة منى، ترددت للحظة، ثم دفعت الباب ودخلت. كان المكان في حالة عبثية وفوضى واضحة. لا شيء مرتب، لا السرير، ولا الغطاء الملطخ بدماء جافة، والوسائد متناثرة، وعلى الأرض الأدوات التي استخدمتها لفتح الصندوق الذي لمحته هو الآخر على الطاولة الصغيرة قرب سريرها فاقتربت منه، حملته بحذر، والتفت خارجةً حيث كان والد المحققة جالساً

يتنظرها في الكرسي قرب النافذة في الغرفة المجاورة وعيناه جزء من لوحة الشارع الفارغ.

- لقد أحضرته.

قالت بهدوء وهي تقترب صوبه حيث رفع نظره وابتسم ما أن وضعته بين أحضانه.

بينما في الخارج، ما يزال زياد ومأمون الذي أخرج سيجارته وأشعلها يتجولان على أمل رصد المحققة وإحضارها للمركز.

- يجب الإبلاغ عن اختفائها، بدأت أقلق.

عبّر زياد عن امتعاضه وهو يفكر بزميلته السابقة التي يمكن أن تتعرض للأذى، لكن قبل أن يجيبه المقدم، لمح شخصاً يتحرك في الجانب الأيسر من الشارع. كان يسير بسرعة، رأسه منخفض ومعطفه يرفرف خفيفاً وراءه. بعد تدقيقٍ جيد اكتشف هويته زياد جيداً بينما خفّض سرعة السيارة.

- ماذا هناك؟

- إنه سيف. الرجل الذي كان يلازم منى مؤخراً. لا أحد يعرف عنه الكثير، وأنا شخصياً لا تعجبني تصرفاته المجهولة، لقد ظهر في عدة مواقع للجرائم بحجة كتابة تقارير صحفية.

@ART_OF_BOOK

أنهى حديثه حيث أشار له مأمون بمتابعته من بعيد، لكنه دخل إلى أحد الأزقة الضيقة القريبة.

- سأنزل لمراقبته، يمكنك الذهاب للمركز وسأبقيك على اطلاع بكل ما هو جديد.

- راقبه، لكن كن حذراً. ربما كانت له يد باختفاء منى.

أوقف زياد السيارة، ثم نزل وبدأ يتسلل بخفة نحو الزقاق، بينما انطلق المقدم نحو المركز وهو يقود بهدوء، وفي الشارع الضيق، توقّف سيف فجأة. لم يعد مندفعاً ربما استشعر وجود أحد خلفه يراقبه. أخرج سيجارة من جيبه، أشعلها وأخذ نفساً عميقاً منها بينما ترك سحابة الدخان تتصاعد ببطء، بعد لحظة، أخرج هاتفه من جيبه ونظر إلى شاشته، ثم أجاب على اتصال، لكن صوته لم يُسمع. اكتفى بتحريك شفتيه وسحنته تخفي توتراً قليلاً. أنهى المكالمة وعاد أدراجه، وهنا اختبأ زياد حتى لا يكشف وجوده، بينما انعطف سيف بسرعة في تقاطع زقاق آخر، واستمر في السير إلى أن دخل إلى أحد المقاهي الصغيرة المحلية، والذي يبدو أنه على علاقة وثيقة بمالكه، حيث قام بالحديث معه والضحك قبل أن يذهب مباشرة إلى طاولة قريبة من الزاوية الخلفية، وزياد يتربص به خلف زاوية المبنى المقابل بنظرات حادة. لم يقترب أكثر بل أحس بأنه على موعد لاكتشاف أمر مريب يتعلق بهذا الرجل الغامض.

ART_OF_BOOK

أخرج هاتفه حين رن بقوة وقد نسي أن يكتم صوته أثناء المراقبة، إنه العقيد.

- أهلاً يا سيدي.

دار حوار قصير عما جرى وعن مراقبته للرجل، ثم أغلق الاتصال وعاد لمهمته، بينما انكفأ العقيد لعمله ورفع سماعة الهاتف الأرضي للاتصال والإبلاغ عن اختفاء المحققة، لم يكن ليترك الوقت ينقضي على أمل أن تعود، فالخطر محدق في كل صوب.

قبل أن يعلن حالة استنفار أخرى، اقتحمت مكتبه، خطواتها مرتبكة، ملامحها شاحبة وكتفاها منحنيان قليلًا، وضماد وجهها يخفي نصف خوفها. أثار وصولها مشاعر العقيد الذي أغلق السماعة على الفور.

- اجلسي!

لفظ الكلمة بنبرة حادة دون أن يأسف لوضعها الصحي السيئ.

- كان عليّ أن ألتقط أنفاسي.

قالت وهي تفرك كفها التي كانت تحكها بجنون، كأنها تعلم بأنهم انطلقوا للبحث عنها والعقيد يراقب حركاتها الغريبة.

- هل تدركين فعلتك؟! كل هذا الإخفاء الغريب للأدلة!

- أنا آسفة.

- هل يفيدك الاعتذار حين نجدك جثة هامدة؟! والقاتل يلاحقك!

استشعرت بعض الراحة في كلماته، إنه قلقٌ عليها لا أكثر، وربما تشفع لها تصرفاتها السابقة.

- أكرر اعتذاري لكن أخذت التحقيق على محمل شخصي، خاصة أن القاتل كان يترك لي أدلة تتعلق بي شخصيّاً.

قالت وهي تشاهد القصاصات الصغيرة أمامه، ومجموعة المستندات الخاصة بها، أما العقيد فقد اكتفى بالاستماع لها قبل أن يقاطع الحديث المقدم مأمون الذي وصل لتوه.

- ما الذي سبب هذه الخدوش؟

لم تشأ أن تخبره عن الكابوس الذي كانت إحدى نتائجه هذه الكدمات والآلام، ولن يصدقها على العموم.

- لقد تسبب بها كرسي والدي المتحرك وأنا أحاول نقله للمنزل.

تنهد العقيد، كأنه لم يقتنع بكلماتها لذا عاد إلى صلب الموضوع، حيث شارك المقدم بأفكاره أيضاً.

- كان من الأفضل أن تُبلغيني بكل ما كنتِ تعملين عليه، هل ما زلتِ تحتفظين بمعلومات لا نعرفها؟

رفعت نظرها إليه، وهي تشاهد نظرة المقدم الحادة نحوها، وهو يحاول تحليل تصرفاتها، لذا خففت من فرك يدها وهي تجيب بصوت هادئ:

- شعرت بأن هناك من يراقبنا من داخل المركز. المعلومات تتسرّب، والقاتل يعرف خطواتنا بدقة، وكأنه يعرفني شخصياً خاصة مع هذه القصاصات وتاريخ ولادتي المرفق عليها.
- أتفهم مخاوفك، رغم ذلك كان من الأفضل التحدث معي لنعمل معاً ونراقب جميع أفراد المركز دون أن تتسببي لنا بهذه الفوضى وأنتِ تتبعين إحساسك!

أنهى الحديث وطلب منها المغادرة والالتزام بمكتبها إلى حين يقرر ما سيفعل بشأنها، إلا أنها شعرت بتوعكٍ شديدٍ وصداع حاد برأسها لذا طلبت منه السماح لها بالمغادرة للمنزل والبقاء فيه إلى حين تتحسن. تردد العقيد قليلاً لكنه وافق في النهاية مع تشديده على عدم التحرك وإعلامه بكل جديد.

***

في الجانب الآخر، حيث لا يزال سيف جالساً في المقهى، وزياد يراقبه وهو يتحدث على هاتفه المحمول بتركيز تام، ويشرب رشفات من كأس الماء الموضوع أمامه، والحذر يستوجب من المحقق أن يرصد الزقاق بأكمله وفي كافة الاتجاهات، لقد أجفلته حركة جاءت من خلفه لكنه كان قطّاً أسود كريهاً يعبث بسلة نفايات قريبة فاحت رائحتها القذرة بشكل مزعج.

بينما كانت الممرضة في تلك الأثناء تعود إلى غرفة منى بهدوء، بعد أن راقبت الطريق قليلاً خشية أن تصل المحققة، ثم دخلت وهي تحمل الصندوق مجدداً بين يديها، ووضعته على الطاولة بجانب السرير، في المكان ذاته الذي كان فيه سابقاً، كما لو أن شيئًا لم يتغير. نظرت حولها للحظة، شهقت نفساً عميقاً، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها.

بالمقابل كان سيف قد أنهى جلسته في المقهى بعد أكثر من ساعة من الانتظار. لم يتناول شيئًا سوى كوب الماء ذاته، لينهض عن كرسيه متوجهاً إلى المالك حيث حوار قصير مع ابتسامات كبيرة، وغادر بعدها بهدوء وزياد يبتعد عن مجال نظره، حيث سار في الشارع بالخطوات الثابتة ذواتها.

***

ART_OF_BOOK

في مركز الشرطة، كانت الأمور تسير بوتيرة مختلفة. تناوب مأمون والعقيد أحمد الذي كان جالسًا أمام مكتبه في الحديث عن الإجراءات المتعلقة بالتحقيق، بعد معرفته من الملفات الخاصة بالمحققة بعض الأخبار والشكوك حول الطبيب ممدوح، والذي تعتقد منى بأنه المسؤول عن تلك الهجمات أو على الأقل مشارك بها.

أما المحققة التي خرجت من مركز الشرطة بخطاً قلقة وبوجهها المكفهر، فصادفت أثناء سيرها زياد الذي عاد من المراقبة خائباً، حيث اختفى سيف بطريقة غريبة من أمامه وكأنه شبح، وقد غرق بتفكيره لدرجة لم ينتبه للمحققة التي عبرت قريبةً منه.

سارت على الرصيف المهجور، والشمس ترمي خيوطها من خلف الغيوم نحو تفاصيل وجهها المشبع بالشرود، كل شيء ساكن، الزمن عالق في دائرة الموت، لذا لم تُفكر بشيء، تركت الخطوات تقودها حتى باغتها الصوت، بنبرةٍ جاءت مدوية كصرخة حادة تمزّق رأسها، ترافق مع ضحكة شريرة تشق طريقها عبر أذنيها، كأن أحدهم يضغط على جمجمتها من الداخل. وضعت يديها على رأسها وأغلقت بأصابعها الناعمة مسامعها، ثم توقفت، اقتربت من جدار باهت اللون لإحدى الشقق القديمة وأسندت ظهرها إليه، أخرجت علبة الدواء بيدها المرتجفة من جيبها، سحبت حبة،

ثم أخرى، وتجرعتهما فوراً، حيث أغلقت عينيها، تريد استعادة توازنها وتصفية ذهنها من الألم الذي تحسست انسحابه بعد دقائق من الانتظار.

- هل أنت بخير؟

أخرجت امرأة مسنة رأسها من النافذة بعد أن انتبهت لوقوف هذه السيدة الغريبة قرب شرفتها، لم تجب منى على استفسار العجوز بل انطلقت دون أن تلتفت نحوها، حيث أخذ الألم يسكن قليلاً. مرّت بأحد الأكشاك الصغيرة، مالكه الذي استجمع شجاعته للبقاء كان يجلس في الداخل على كرسي بلاستيكي قديم، يراقب المنطقة بحذر فلا زبائن يصطفون مثل عادتهم لشراء الصحف أو المشروبات الساخنة قبل ذهابهم للعمل. لمحت المحققة على الرف السفلي للكشك ما أجبرها على التوقف. إنها جريدة محلية، حملت عنواناً جانبيّاً صغيراً كتب بخط عريض:

«مجزرة الحاضنات قاب قوسين»

لفت انتباهها عنوانها الغريب، ثم رأت في الأسفل بعض الصور المرفقة بالأبيض والأسود. لم تصدق ما شاهدت «القصاصات.

@ART_OF_BOOK

صورة تقريبية للطبيب ممدوح والشبهات التي تحوم حوله حتى تكتمل القصة المكتوبة». وقد حملت تاريخ البارحة.

تجمدت مكانها، أعادت قراءة السطور أكثر من مرة، لا تصدق ما تراه. لم يُعلن عن هذه المعلومات بعد، وهي لم تخبر بها أحداً سوى اليوم. انقبض قلبها، كأن أحدهم دس يده بداخله وعصره بقوة. هناك واشٍ كما توقعت المحققة تماماً. أدركت أن من سرب تلك التفاصيل لا يخرج عن اثنين «زياد أو سيف».

ابتعاد زياد والإبلاغ عنها للعقيد أوقع الشك حوله، لا يمكن أن يكون سيف رغم تصرفاته الملغومة وإصراره على البقاء بقربها، كما أنه اعترف بأنه يعمل في صحيفة وقد اختص بقصص الجرائم، وزياد أيضاً يمكن له أن يسرب تلك الأدلة لتوريطها، فكرت للحظات ويكاد رأسها ينفجر، والرجل في الداخل ينظر صوبها لا يجرؤ على مقاطعة شرودها واحتقان وجهها.

- لن أسامحك إن كنت أنت الفاعل!

صرخت في الشارع وأجفلت البائع الذي مال للخلف مرتعداً، أما منى التي أخذت نسخةً من الصحيفة دون أن تدفع ثمنها، فقد تابعت السير وهي تدبر خطة في ذهنها للوصول للشخص الذي يحاول النيل منها، لن تغفر لسيف إن تحققت من أنه الفاعل، ثم

ART_OF_BOOK

تسارعت خطواتها، لم تعد ترى الطريق، كل ما كان يخطر في بالها هو وجه سيف وصوته وهو يقول: «أنا معك»، لذا كانت مرتبكةً للغاية تكاد تنهار وتقع في منتصف الطريق، لكنها تماسكت قدر الإمكان إلى أن وصلت إلى المنزل، حيث ولجت للداخل، إلى غرفتها وأغلقت الباب.

أمسكت هاتفها، نظرت إلى عشرات المكالمات الفائتة، والرسائل المتراكمة من العقيد، من زياد، من رقم مجهول. مسحت الإشعارات بسرعة، ثم ضغطت على اسم سيف.

- أهلاً منى.

- أحتاجك هنا على الفور. أريد المساعدة أرجوك.

قالتها بارتباك شديد دون أن ترد التحية، أرادت أن تجلبه إليها فالوقت يداهمها، ستنفتح أبواب الجحيم قريباً عليها من العقيد بعد أن يعلم بهذا التسريب.

- أنا قادم حالاً.

رد سيف ثم أغلقت الخط، ووضعت الهاتف جانباً، ثم قامت بتنظيف المكان بشكل سريع حيث سحبت الغطاء الملوث بالدماء، وضعته داخل الحمام وعادت لجمع الأدوات المرمية هنا وهناك، وجمعتها في ركن واحد، وحين انتهت من الترتيب اتجهت إلى النافذة

وفتحت الستار قليلًا، وبدأت ترصد الشارع الخارجي، وبعد خمس عشرة دقيقة تقريباً، رأت سيارة سوداء صغيرة تقترب، وقد توقفت عند الزاوية المقابلة بعيداً عن منزلها، ثم ترجل منها أحدهم، إنه سيف. بدأ الاقتراب نحوها وقدماه تتسابقان للوصول مما زاد الشك في قلبها حيث تيقنت من أنه يخفي عليها موضوعات عديدة من بينها سيارته.

ما أن طرق الباب بيده الخشنة، حتى سبقت منى الممرضة التي كانت تنوي استكشاف هوية الضيف الواصل، ثم فتحت له وتقدمت أمامه بعد أن استعجلته بالدخول. للمرة الأولى يظهر سيف متردداً بعد أن استشعر بعض الغرابة في تصرفات المحققة. ولم يكد يقطع عتبة غرفتها ويغلق الباب خلفه كما طلبت منه، حتى شهرت مسدسها الصغير ورفعته بوجهه، فما كان من سيف سوى الاستجابة لها وهي رفع يديه بتوتر، لم يتحرك خطوة.

- منى... ماذا تفعلين؟ هل جننتِ؟

- الهاتف... افتحه وارمه على السرير. الآن!

بتردد، أخرج هاتفه، قام بإلغاء القفل على شاشته، ثم قذفه فوق السرير.

- ما الذي يجري؟!

ART_OF_BOOK

قال بينما أشارت له بالسلاح بالتوقف عن الكلام، يدها ترتجف وقد يقع المحظور في خضم حالتها النفسية السيئة، لذا اضطر سيف للسكوت تماماً ريثما يفهم القصة.

- لم أخبر أحدًا عن القصاصات ولا عن الطبيب ممدوح، كيف ظهرت التفاصيل في الصحيفة؟! ولم يكن يعلم بالأمر سواك أنت وزياد.

- هل تحققتِ من زياد؟

- سيحين دوره لا تقلق!

بدأت تُقلب في هاتفه، تتصفح مجلداته، بحثت في سجل المكالمات، في الملفات، ثم انتقلت إلى تطبيق الملاحظات لكن لا شيء لافت، لم تجد جملة تشير إلى تفاصيل الجرائم الحاصلة أو أي تسجيلاتٍ تحتوي على اعترافاتٍ منها. وجدت بعض المذكرات العامة عن الجرائم، صوراً للمدينة، مشاهدات وتحليلات شخصية، لكنها لا تدينه. لم يحتفظ حتى بصورة شخصيةٍ له. كلما قلبت صفحة، كانت يدها ترتجف أكثر، مزيج من الغضب والخذلان يشق طريقه من صدرها إلى أطرافها، لكنها ظلت صامتة.

من خلف الباب، كانت الممرضة واقفة، أذنها تلامس الخشب، أنفاسها بطيئة، تستمع إلى الحديث الدائر.

***

ART_OF_BOOK

في لحظة من الهدوء، انفتح باب العقيد فجأة وأربكه، ثم دخل أحد أفراد المركز مسرعاً، يسلّم العقيد ظرفاً يحوي تقريراً مستعجلًا وسريّاً للغاية، لكن المرسل كان مجهولاً، وهو ما أثار الشك لدى العقيد الذي فتحه على الفور ما أن خرج الشاب من مكتبه.

- «تم الإبلاغ عن حقيبة بجوار البناية المتهالكة خلف الحي الشعبي. بداخلها ملابس مشبعة بالدماء، كان يعبث بها بعض الأطفال، ما زالت في مكانها يرجى إرسال دورية لمعاينتها».

فكر قليلاً وهو يعود بذاكرته. ثم همس:

- إنه المكان الذي تمت فيه الجريمة الأولى في الشهر الفائت، لكن قد يكون فخّاً!

غص قليلاً، شحب وجهه تدريجيّاً، ثم نادى على زياد على الفور، من أجل الانطلاق وتقصي الأمر.

***

أنهت منى تفتيشها، ومغمورةً بالإحباط تراجعت وجلست على السرير، أما سيف الذي ظل واقفاً مكانه دون حراك، فحاول أن يهدئ من روعها.

- هل تنوين إبقائي هنا تحت تهديد السلاح حتى تنتهي من

ART_OF_BOOK

تفتيشي؟ هذا ليس تصرفاً مهنيّاً، وهذا الغضب لن يوصلك للقاتل. أنتِ تخلطين بين الناس الذين يحاولون حمايتك وبين أوهامك، أما بخصوص التسريب فأنا أؤكد لك أنني لست مسببه ويمكنك مرافقتي إلى مكان عملي للتحقق.

مع سكوته وقفت منى، الهاتف لا يزال في يدها، حيث تقدمت نحوه وأعطته الهاتف ثم خفضت سلاحها ووضعته على خصرها كعادتها، ربما أرادت أن تعطيه الثقة مجدداً لتكتشف نواياه.

- سأساعدك على الوصول للعين الذي أفشى هذه المعلومات.

- ليس الآن يجب أن أرتاح، أعتذر عن إثارة خوفك وإزعاجك.

من خلف الباب، علمت الممرضة بأن الوقت حان لتبتعد لذا مشت للخلف بخفة إلى أن دخلت غرفة السيد فواز. لم تمضِ ثوانٍ حتى غادر سيف أيضاً ليترك المحققة ترتاح. خرج وأغلق الباب خلفه بهدوء، لكنه وتحت نظرات منى التي خرجت لمراقبته وقف أمام السيارة التي جاء بها، نظر نحو المنزل مجدداً، كأنه شعر بالعين التي ترصده، ثم بدلاً من أن يركب سيارته، انطلق باتجاه الشارع الخلفي بخطواتٍ سريعة.

***

في الوقت ذاته، وصلت دورية شرطة إلى المكان المطلوب، إلى حيث انفتحت أول بوابة للجحيم. كان زياد يرافق مأمون وكلاهما واقف أمام هذه الحقيبة القديمة التي بدت وكأن أحدهم حاول إخفاءها خلف كومة حجارة متهالكة، اقترب زياد وفتح الحقيبة بحذر وهو يلبس قفازين طبيين حتى لا يلوث الأدلة. وجد ملابس أطفال صغيرة، ممزقةً وملطخة بالدماء، بعضها مقصوص بشكلٍ عبثي من الأطراف، أخرى مقلوبة من الداخل كأن أحدهم جرّد الجثث منها عنوةً.

- الجثث السابقة كانت ترتدي ملابسها، هل تظن أن هناك جريمة أخرى؟

قال زياد وهو يمسك إحدى القطع المهترئة. ليرد مأمون:

- كل شيء وارد علينا أخذها والتحقق منها في المختبر.

وضعا كامل الألبسة داخل كيس بلاستيكي محكم الإغلاق، والحقيبة في كيس آخر، حتى يصلا إلى مخبر الأدلة الجنائية لتحليل البصمات وبقايا الدماء، على أمل أن تطابق شيئاً من الجثث السابقة دون الخوض في تحليل مخاوفهما حول اكتشاف جريمة جديدة، فالشارع لم يعد يحتمل.

***

منذ اللحظة التي اختفى فيها سيف داخل الشارع، فتحت منى الباب وخرجت. لم تكن ترتدي معطفها رغم برودة الهواء، أرادت أن تلحق به قبل أن يختفي فتصرفه الغريب أعاد الشك لقلبها وربما كان تأكيداً لها بأنه مذنب، لذا نزلت الدرج بخطوات خفيفة، ثم تبعت الطريق نفسه الذي سلكه. الشارع كان شبه خالٍ، هناك بعض الرجال يقفون قبالة منازلهم لتنفس الهواء بعد أن ضاقت عليهم جدران منازلهم واستوطن الخوف كيانهم. استمرت المحققة بخطاً موزونة، تتفحص الزوايا وتجرب مضاهاة سرعة سيف بخطواته الكبيرة، إلى أن رأته أخيراً وهو ينعطف إلى شارع فرعيٍّ ضيقٍ آخر. لم تستطع التوقف لالتقاط أنفاسها حتى لا تفقد أثره، تريد تقصي حقيقة ما يفعله.

***

في هذه الأثناء، كان العقيد أحمد داخل مكتبه حين رنّ هاتفه الأرضي. رفعه، وما أن قال: «نعم؟» حتى تغير وجهه. الصوت القادم من الجهة الأخرى كان رسمياً وحاداً. كلمات صارمةٌ قصيرة جعلت حلق العقيد يجف، وهو يرد بـ «أفهم» و«نعم، سيدي»، قبل أن يغلق الخط. الأوامر صارمة، تم إعطاؤه مهلةً قصيرةً لإتمام المهمة وإلا فسيتم نقله.

***

لمحت ظلالاً تموج خلفهم، مما دفعها للانسحاب بسرعة، لقد نسيت أن تحضر علبة المسكنات والهواء بدأ يثقل في صدرها. تحت نظرات أفراد الشرطة الذين تابعوا تصرفاتها الغريبة وهي تستدير وتنظر حولها بريبة وتسرع عائدة باتجاه المنزل.

ظلت الأصوات ترافقها، وقد خُيّل لها أن الشوارع غدت صحراء قاحلة وكثباناً تعلو وتنخفض تحاول سحبها للأسفل، أخذت تركض وتستشعر أيادِيَ خفيةً تمسكها من الخلف، وأخرى تدفعها للأمام، إلى أن وصلت إلى المنزل أخيراً، وقد لمحت أثناء إغلاقها باب المنزل اختفاء سيارة سيف؛ فالتفت بخطواتٍ مضطربة تنظر حولها بقلق تريد الوصول إلى علبة الدواء بسرعة، وفي رأسها كانت صورة سيف تتلاشى وتعود، وتستذكر خطواته في الزقاق، نظراته، كل تفاصيله، والرعب يحتل كيانها.

البيت بدا أضيق مما هو، كأن الجدران اقتربت بعضها من بعض. اتجهت إلى غرفتها وجلست على السرير وتجرعت ثلاث حبات من علبة الدواء وهي تتفقد الباقي منها. وجهها خالٍ من التعبير، رغم أنها تنهار من الداخل.

في تلك اللحظة، سقطت عينها على الطاولة حيث تركت الصندوق. لا تدري لمَ فكرت في محاولة تحطيمه لتجاوز أفكارها الحالية، بيد أن كل شيء متصل، الجرائم وأمها والطبيب، وصولاً إلى

كانت أنفاسها تتسابق مع ظل سيف، من زاوية إلى أخرى، ومرة تلحق رؤيته ومرةً يختفي على ناظريها وهو يتجاوز الدوريات بدهاء، إلى أن وصلت منى إلى زاوية وضع عليها حاجز حديدي لإيقاف السيارات وتفحصها، وقد اصطفت قربه سيارة شرطة مع ثلاثة أفراد. فاقتربت منها، ولم تكد تصل حتى سارع الرجال إلى تحيتها بعد أن تعرفوا عليها.

- هل مرّ رجل طويل يرتدي معطفاً طويلاً أسود من هنا قبل قليل؟

تبادل أفراد الشرطة نظرات سريعة، ثم قال أحدهم:

- لا لم يعبر بنا أي شخص منذ أكثر من نصف ساعة.

- هل أنتم واثقون؟

أكد الثلاثة عدم مشاهدتهم لأي شخص بهذه المواصفات، أما منى فقد شعرت بأن جسدها لم يعد قادراً على الحركة، هل كانت نطارد شبحاً؟ لا يمكن أن يختفي ببساطة حيث إن هذا الزقاق لا يحمل أي تقاطعات أخرى ليختفي داخلها. نظرت نحو الطريق خلفها، ثم أمامها. لا يوجد شيء. لا أثر له. نظرت نحو رجال الشرطة مجدداً، واستطعمت داخل بلعومها طعماً غريباً أقرب للملوحة مع رائحة رطوبة تشبه البحر كادت تصيبها بالغثيان، ثم

سيف، كل ما حولها يجرب أن يكون طرفاً في المؤامرة المَحُوكة ضدها. إذاً لم تنتظر حتى يأخذ الدواء مفعوله، حيث نهضت واقتربت منه، سحبته من مكانه وأعادت وضعه على الأرض، ثم ذهبت إلى الزاوية حيث أخفت المطرقة والمفكات حملتها وبدأت تضرب الصندوق بعنفٍ بالغٍ بكلتا يديها، رغم جراحها التي لم تشفَ.

تصدع خشبه، شظاياه تناثرت وصوت الطرق اصطدم بالجدران. انفتح جرح يدها من جديد، الدم بدأ ينساب منها، لكنها لم تشعر. ظلت تضرب وتبكي، وتشهق في صمت. ثم ومن خلف الباب، جاءت طرقات خفيفة.

- منى؟ أأنتِ بخير؟ ما الذي يحدث؟

جاء صوت الممرضة مشوباً بالتوتر، لكن المحققة لم تجبْ. بقيت تضرب إلى أن تحطم الصندوق أخيراً، حيث أخذت نفساً عميقاً، وهي تزيح القطع المحطمة وتقلبها بحثاً عما يوجد في الداخل. لكنه كان فارغاً تماماً، كل هذا الأسى والانتظار على أمل أن تفهم، على أمل أن تكشف أسرار والدتها الدفينة.

صرخت صرخة قصيرة بدت كأنها حطمت عظام قفصها الصدري، ثم تمددت على الأرض وهي تغرق بالقطع الخشبية، وعقلها لا يستوعب كل هذا الخراب. كل هذا الجنون.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

- لماذا؟ لماذا كان مقفلاً؟ هل أرادت التلاعب بي حتى بعد موتها؟!

نهضت فجأة، العرق والدم يبللان ذراعها، ثم خرجت لتجد والدها جالساً في الصالة والممرضة تقف خلفه، يبدو عليها الخوف، لدرجة كانت تمسك بكتفه دون أن تشعر. اقتربت المحققة ووقفت قبالته.

- أكنت تعلم أنه فارغٌ أيضاً؟! هل تخفي شيئاً علي؟

خاطبته بقسوة على أمل أن تتحرك شفاهه ويتحدث معها أخيراً، لكنه بدل ذلك نظر إليها بشكلٍ مطول، ثم بدأ يتأوه وهو يحرك رأسه ناحية الأسفل، كأن الألم اقتحم قلبه مجدداً.

- منى، أرجوكِ. والدك لا يزال متعباً، الضغط عليه الآن قد يضره.

ظلت تسلط عينيها نحوه مثل غيمة قاتمة، ثم استدارت عائدةً إلى غرفتها، حيث ركلت قطع الخشب المتناثرة أمام الباب، قبل أن ترمي جسدها فوق السرير، وتدفن وجهها في الوسادة. الدماء على يدها لوثت ملابسها، الصراخ في رأسها لا يزال رغم أن جرعة الدواء قللت منه. وأثناء ذلك أدارت رأسها ببطء، ونظرت إلى الطاولة. حيث وضعت علبة الدواء، وبدأت فكرة الخلاص تتسرب من جديد لذهنها لكن تأثير الجرعة القوية السابقة أنهك جفنيها وأغرقها في نومٍ أشبه بالسقوط داخل دوامةٍ عميقةٍ لا قرار لها.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ظلت الممرضة تتحرك في أرجاء المنزل بخطاً حذرة، وقد أعادت الرجل إلى غرفته. تعلم أنها لا تجرؤ على فعل شيء إن انهارت المحققة وحاولت أذيتها، رغم ذلك فكرت جدياً في محاولة حماية والد منى المسكين مهما كلف الأمر، ثم اتجهت إلى المطبخ، بدأت إعداد بعض الطعام كأن شيئاً لم يكن، في محاولةٍ لإشغال نفسها. باشرت تقطيع الخضار، وعينها لا تنفك تراقب غرفة منى، وآذانها متيقظة لأي صوت مقلقٍ قد يصدر من هناك.

***

في المركز، دخل زياد مكتب العقيد يحمل تقريراً ورقياً وقدمه له حيث كان جالساً مع مأمون والانزعاج جلي على سحنته.

- الدماء لا تعود لأي من الضحايا السابقين المعروفين لدينا.

قال العقيد وهو يقرأ التقرير، حيث ساد الصمت للحظات قبل أن يتدخل المقدم:

- إذاً هناك جريمةٌ أخرى!

- إنه احتمال وارد.

قال العقيد قبل أن يقاطعه زياد ويطلب منه قراءة بقية التقرير.

- اللعين إنه يتلاعب بنا!

***

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

الوقت يمضي ببطء. ما تزال منى على السرير، لم تتحرك منذ ساعات. غارقة في نومها وجسدها كتلةٌ من التعب والفوضى، يقتحم عقلها صورة سريعة متخيلة عن شقيقها التوءم المجهول، في المقابل كانت الممرضة قد أنهت إعداد الطعام، وضعت طبقاً صغيراً أمام والد منى، وساعدته على الأكل. أمسك الرجل بيدها وهو يبتسم في إشارةٍ على شكرها، بينما استمرت بالتحديق به وهي تؤكد أنها تفهم قصده، لكنها لم تستطع الكلام.

كان الوقت قد تأخر فعلاً والظلام أوشك أن يحل، حينها التقطت الممرضة هاتفها المحمول واتصلت بشقيقها.

- كيف حالك؟ لن أعود الليلة. أخبر أمي أنني سأبقى هنا.

وضع السيد فواز صعب ولا يستطيع العناية بنفسه، ومنى ليست بحالة جيدة. لكن لا تقلقوا. سأكون بخير.

جرب شقيقها تغيير رأيها لكنها أصرت على موقفها، ثم أغلقت الهاتف.

***

لا يزال الجميع في المركز، التوتر جمعهم والآراء متفاوتة، لا توجد كاميرا في المكان الذي رميت فيه الحقيبة، لذا فإن الأمل ضئيلٌ لتقصي الجاني.

- من الأفضل أن نعود من البداية، ثم نتجه إلى هنا...

ART_OF_BOOK

قال المقدم، وهو يضع خريطة للمدينة أمامه ويتجه بالقلم نحو الجريمة الثانية وصولاً إلى المستشفى. في إشارة لثلاث نقاطٍ تشكل مثلثاً لم ينتبه له زياد ولا حتى منى في السابقة. وهذه المناطق يتوسطها مركز الشرطة بشكل غريب. ثم تابع حديثه:

- سنقسم المنطقة إلى قطاعات، نُحاصر الأزقة بشكل أكبر، ونُنسّق مع جميع الدوريات وإن اضطررنا فسنعيد طلب القوات الإضافية من المحافظة، وإذا تطلّب الأمر تفتيش المنازل المجاورة والتحقيق مع الناس، فسنفعل ذلك، ربما يخشى بعضهم تعريض نفسه للخطر في الإبلاغ عن القاتل.

أومأ العقيد بالقبول بفكرة مأمون رغم التعب الواضح عليه.

- لا نريد تقصيراً بعد الآن، تحرّكوا قبل أن يُقتل طفل آخر، أما بخصوص الحقيبة فعليكم زرع أفراد من الشرطة في كافة مناطق المدينة التي تعتبر بؤرةً للأنشطة المشبوهة، عليهم الاحتماء في أماكن سرية حيث يستطيعون رصد أي حركة.

نهض زياد والمقدم وخرجا وهما يتبادلان تفاصيل الخطة المطلوبة مدركين أنهما لن يعرفا الراحة قبل الإمساك بالقاتل القذر.

***

ART_OF_BOOK

أما منى التي أجفلها صوتٌ غريب حولها، وبدأت تنظر في كل ناحية، فشعرت للوهلة الأولى أن أحداً كان في الزاوية المجاورة لها، لذا رفعت جذعها قليلاً وأمالت ظهرها على مسند السرير الخشبي القديم خلفها، الذي حمل أزيزاً خفيفاً يضفي بعض الهلع على المكان، وكان الليل قد تمدد على المدينة كضيفٍ غدا مجيئه ثقيلاً منذ أن بدأت سلسلة الجرائم البشعة، لقد غلّف النوافذ وخنق الأصوات.

تابعت منى الضوء الخافت من المصباح العلوي المكسو بالغبار. ثم نهضت وجلست على طرف السرير وعادت لتفقد المكان ونظرت للأسفل، وهي تؤكد أن ما شاهدته كان مجرد وهم آخر، تتلاعب الأشياء بأفكارها لتصاب بالجنون، وتتوقف عن ملاحقة القاتل لسببٍ تجهله، ربما لعنةٌ ما ألقتها عليها أمها قبل أن ترحل. ثم رن هاتفها. نظرت وقرأت اسم زياد، فأثار ريبتها واستغربت اتصاله في هذا الوقت المتأخر، وقد توترت بعد أن خطر في بالها أنه يريد إعلامها عن اكتشاف التسريب الحاصل للأدلة، ثم تماسكت قليلاً وصدى الرنين يصدح في المنزل، وأعادت لذهنها أن زياد ربما كان شريكاً في إفشاء الأدلة، لذا فكرت مليّاً قبل أن تجيب.

- أهلاً زياد، ما الذي تريده؟

- آسف إن أزعجتك، لكنني أردت الاطمئنان عليكِ بعد ما مررت به هذه الآونة.

ART_OF_BOOK

- لا تهتم، أنا بخير حالياً، هل من جديد؟

- نعم وجدنا حقيبةً اليوم، كانت تحتوي على ملابس أطفال ملطخةٍ بالدماء.

- حقيبة؟!

- نعم، لكن للأسف لم تطابق أيّاً من الضحايا الذين نتابع التحقيق بقضيتهم، رغم أننا عثرنا عليها خلف البناية نفسها التي بدأت منها الجرائم.

لم تستطع منى الإجابة، لقد عقد لسانها وهي تسمع خبر الحقيبة، قبل أن تخرج منها جملة مبهمة أجبرت زياد على الوقوف للحظات عندها، لقد همست:

- هذا غير صحيح.

- ماذا؟

- لا شيء. آسفة... أنا متعبة. سأتحدث معك لاحقاً.

قالت ثم أغلقت الخط. بينما في الجهة المقابلة بقي زياد ينظر إلى شاشة هاتفه بعد انقطاع المكالمة، ونظراته تؤكد أن هناك أمراً مريباً حول زميلته.

التفتت منى إلى السرير حيث وضعت الصحيفة، ثم عادت لتقرأ ما كتب فيها، فاتسعت حدقتا عينيها وبدأت تقلّب الصفحات قبل أن ترمي الصحيفة بعيداً عنها.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

- هذا مستحيل!

لم تجد المحققة الكلمات التي تم نشرها في الصفحة الأولى، كان عنواناً مختلفاً، اختفت كافة الصور والأدلة، كل ما قرأته كان وهماً خالصاً، إنها ضريبة إدمانها الشديد على المسكنات، بدأت تتخيل أحداثاً وأموراً غير موجودة. انتفضت وانطلقت إلى عبوة الدواء وقامت بوضعها أسفل قدمها وراحت تدوس عليها بشكلٍ هستيري وهي تصرخ بجنون:

«كاذبون!

كلكم كاذبون!

لم أكن مجنونة... أنتم من جعلتموني كذلك!

كل شيء كان حقيقياً... رأيته... لم أتخيله!

أعيدوا لي الحقيقة!

أعيدوا لي عقلي!

أنا لست مريضة! أنا لست مريضة!»

***

ART_OF_BOOK

وفي عزلة الليل، بعيداً عن كل شيء، جلس رجلٌ على شرفة شبه مظلمة. ملامح الجدران غير واضحة رغم أنها تبدو حديثة الطراز. كان هذا الشخص المواجه للعتمة «سيف»، سحب نفساً عميقاً من سيجارة أضاءت شعلتها بين أنامله بعض تفاصيل وجهه، بينما انسل الدخان إلى الهواء مثل خيطٍ رمادي يشق برودة الليل الصامت.

بان وجهه أكثر ما أن بدأ يتصفح هاتفه، كان ساكناً، وهو يمرر الصور كما لو أنه يبحث عن لقطةٍ معينة، قلّبها الصورة تلو الأخرى إلى أن توقفت أصابعه على إحداها، والتي أظهرت حقيبة سوداء قديمة. كانت مفتوحة وبداخلها ملابس صغيرة، مطوية بطريقة عشوائية مع بقع دمٍ باهتة تلطخ الزاوية العليا منها. نظر إليها طويلاً والدخان يتصاعد من بين أصابعه، ثم أطفأ الشاشة وهمّ بالنهوض.

***

لم تعد منى تحتمل البقاء في المنزل، شعرت بأن الهواء أصبح قليلاً بشكل خانق، كأنها داخل الصندوق الخشبي الأحمر ذاته، قررت أن تخرج، أن تمشي، أن تهرب من هذا المحيط القاتل الذي يضغط على عقلها وروحها. ارتدت معطفاً أسود سميكاً وصلت إليه بعض بقع الدم دون أن تعلم السبب، وأضافت وشاحاً صوفيّاً أسود لفته حول

ART_OF_BOOK

رقبتها. نظرت لعلبة الحبوب المحطمة على الأرض، تركتها في مكانها، وخرجت دون أن تأخذ شيئاً. شاهدت الممرضة النائمة بسلام على الكنبة في صالة الاستقبال، لكن ما أن أدارت ظهرها خارجةً وهي تغلق الباب بهدوء، وبدأت خطواتها تسير وسط الظلام حتى تحرك الستار قليلًا من الصالة. كانت الممرضة ادعت النوم كما يبدو ثم وقفت لمراقبة المحققة وهي تغيب عن ناظريها.

عبرت منى الشارع دون أن تبدي أي قلق، لم تفكر لا بالقاتل المجهول الذي قد يتربص بها، ولا بأي خطر آخر، كانت تمشي كمن استهلكه اليأس تماماً، الليل كان موحشاً مع أصوات الحيوانات التي تجفل أي شخص يتحدى الظهور بطريقها وحده، وبدت الطرقات تكسوها الرطوبة، والأنوار الشاحبة في أعمدة الإنارة ترتعش كأنها تُصارع حتى لا تنطفئ، ومواء قط متقطع من جهة اليسار، عواء كلب خافت من بعيد اشترك في سمفونية الرعب الحالية، ومنى تتابع سيرها بينما تلهث البخار الذي يخرج من فمها وأنفها، ويتصاعد إلى أعلى قبل أن يتلاشى.

لمحت الدوريات الأمنية وهي تقترب من أحد الأزقة، ولتبعد الشبهات عنها قررت أن تمشي بعيداً عنهم، لا تحمل سلاحاً ولا بطاقتها التعريفية، لا تحمل سوى صداعها وآلام جراحها وضربات

قلبها الخافتة. ثم اهتز هاتفها في جيب المعطف مما أجبرها على التوقف، حيث سحبته ببطء وهي تخفي ضوء شاشته حتى لا ينتبه أحدٌ لوجودها، ثم عادت لتنظر نحو الرسالة الواردة من رقم مجهول، والتي دفعها فضولها لتفتحها، لتظهر عدة صور مرسلة دفعةً واحدة. صورٌ لأوراق مكتوبة بخط يد. دفتر قديم تم تصوير بعض صفحاته حيث بدأت تقرؤها بتوتر.

- «إلى من ستقرأ هذا، ربما ستكونين أنتِ يا منى، ابنتي العزيزة، كان اسمه ممدوح، التقيته قبل زواجي، كنت في مرحلة ما أحبه بطريقة تشبهني، قبل أن يضطر للسفر للدراسة، عدت لحياتي مكسورة ولاحقاً تزوجت من والدك، رجل طيبٌ لكنه كان مريضاً».

ارتفعت ضربات قلبها الخامدة وهي تقرأ تلك السطور، حيث شرحت أمها تفاصيل حياتها ولقائها بوالدها، وصولاً إلى عودة ممدوح الذي فوجئت برؤيته مجدداً؛ فأعاد لها تلك المشاعر السابقة، حيث بعثت فيهما تلك الأفكار السادية السوداوية القديمة من جديد. واستفاقت داخلهما اللذة المرتبطة بالخوف والدم، والإيمان بأن الألم قوة. وأن الظلام هو اللغة الأكثر نجاعةً.

ART_OF_BOOK

مع كل حرفٍ تقرؤه كانت يدا منى ترتجفان بقوة، حاولت التوقف عن القراءة إلا أن قوةً أجبرتها على المتابعة.

- «بدأنا معاً، استدراج ومقالب مخيفة. ثم تطور الأمر للخطف وصولاً إلى القتل».

اعترفت لها بمحاولتها قتل والدها بعد اكتشافه للأمر حيث تعرض لأزمة دماغية وهو يحاول البحث عن دوائه الذي أخفته عليه قصداً، لكنه نجا وأعلمها الأطباء أنه سيظل مشلولاً طوال عمره، وأنه يحتاج لمعجزة ليعود كما كان، لذا تراجعت عن فكرة قتله وبدأت تغيظه بما كانت تفعله رفقة الطبيب ممدوح.

- «لم يكن هناك مجال للندم، سوى حين قدمت لممدوح شقيقكِ التوءم للمتاجرة بأعضائه، لكنني لم أستطع فعلها بيدي، لم أستطع قتل صغيري».

كادت تتوقف أنفاس منى وهي تستمع لاعترافات أمها القاتلة، أرخت جسدها على جدار قريب تريد أن تستند فقد كادت تسقط من هول فظاعة الجريمة التي اقترفتها أمها. غرقت عيناها بالدموع والصور. أصيب رأسها بعاصفة من الآلام والأفكار وهي تحاول معرفة الشخص الذي أرسل هذه الصفحات، ومن أين حصل عليها؟

@ART_OF_BOOK

رفعت الهاتف ونظرت إلى الرقم وضغطت زر الاتصال، ثم وضعت الهاتف على أذنها، استمر الرنين مرة، اثنتين، وطويلاً إلى أن انتهى، ثم عادت لتحاول من جديد لكن هذه المرة خرج الهاتف عن الشبكة، وبينما كانت أنفاسها تتسارع، كانت عيناها تراقبان الشارع من حولها كأنها تنتظر أن يظهر من أرسل الصور، ثم جلست على الرصيف وسط الشارع المقفر، ونظرت مجدداً إلى الصور وواصلت القراءة.

«لقد ظننت أنني قادرة على الاستمرار، لكنه كان خطأ.

لم أعد أستطيع أن أكون تلك المرأة، وممدوح بدأ يتغير. صار أكثر شراسة، أكثر رغبة في التوحش، وأنا التي كنت أتماهى معه وأرغب بالحب المشروط الذي يقدمه، بدأت أراه شيطاناً حقيقياً، وفي لحظة ما، أدركت أن عليّ أن أنهيه. خدرته وقتلته، ودفنت جثته بعيدًا، حيث لن يجدها أحد، ثم زورت شهادة وفاته وأرسلتها إلى مستشفى النور القديم»

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

تكشّفت الحقائق واحدة تلو الأخرى أمام المحققة التي قرأت آخر الصور المرسلة، والتي اعترفت فيها والدتها بأنها ستنتحر قريباً، وهي تطلب الصفح والغفران من ابنتها رغم أنها متيقنة أن طلبها مستحيل، فلا أحد يمكن أن يسامح وحشاً، حتى لو كان من لحمه ودمه.

ما أن انتهت من قراءة السطور الأخيرة، ويدها ما تزال تقبض على الهاتف، حتى التفتت حولها حيث لا أحد. لا بشر ولا صوت، اختفت فجأة أصوات الحيوانات أيضاً، استشعروا الخوف الذي خرج من الصفحات المكتوبة، الوحش الكامن داخلها. ثم نهضت وهي تفكر بشهادة الوفاة التي وجدتها في ملف الطبيب، وقد توضحت الصورة تماماً رغم أن هناك تفاصيل شائكة تتعلق بالصفحات المكتوبة بخط مشابه لخطها التي تم دسها في تقارير الجرائم القديمة.

لا تتذكر سوى ملامح باهتة من طفولتها وذكرياتها مع أمها، استجمعت قوتها ووضعت الهاتف في جيبها، والدموع لا تزال تحدد ملامح حزنها وانكسارها، ثم حاولت النهوض والابتعاد بعد ما احتل البرد كيانها، كما أنها تنبهت لصدى إحدى صفارات

ART_OF_BOOK

سيارات الشرطة التي تجوب شوارع المنطقة القريبة منها، حيث بدأ كما يبدو تنفيذ الخطة التي تجهلها منى بدقة، مع مراقبة مستمرة وشديدة، وتحرك متناسق على مدار الساعة، إضافة إلى فرقٍ بدأت تنتشر باتجاه الأحراش المجاورة، حيث تشير بعض المؤشرات الميدانية إلى احتمال وجود ممرات قد استُخدمت في عمليات النقل أو الإخفاء.

***

في خضم تلك اللحظات المحمومة، داخل منزل منى، وقفت الممرضة أمام السيد فواز الجالس في كرسيه المتحرك. وجهه هادئ، لكنه مفعم بالحزن. عيناه تكتنزان الدمع ويحاول قدر المستطاع أن يتمالك نفسه.

- أظن أن الوقت قد حان لنخرج من هنا، أعددت كل شيء.

لم يجب على كلماتها بل نظر نحو الغرفة المجاورة، إلى الباب المغلق الذي يحوي خلفه ذكريات سنين طويلة، ثم تنهد، وقال بصوت خافت:

- فلنخرج

***

@ART_OF_BOOK

فقدت منى الشعور بجسدها مع البرد القارس الذي هبط فجأةً. عقلها مشتت بين كلمات والدتها وذلك الرقم الغامض، لم تعد تفهم ما يحدث، كل ما أرادته الآن أن تمشي بعيداً، أن تختفي، وأن تنشق الأرض وتبتلعها وتخلصها من آلامها.

ثم بدا وكأن صوتاً ضعيفاً أخذ يعلو خلفها. أقرب لهديرٍ خافت لمحرك مركبة تتحرك ببطء. استدارت فور إحساسها باقترابه، أول ما وقعت عينها عليه تحت إنارة الضوء الوضيع لعمود الشارع، كان سيارةً سوداء صغيرة تتسلل خلفها بدون أضواء كظل شبح حي.

لم يخطر في بالها أن يكون القاتل جريئاً لدرجة تنقله في سيارة داخل الشوارع التي تتم مراقبتها بشدة، لذا وقفت تنتظر أن تتجاوزها وتذهب بعيداً وهي تحاول التحديق بالسائق خلف الزجاج المظلم، واستغربت سبب قيادته دون أي إضاءة، لكن لم تنهِ تحليلها لما تراه حتى اشتعلت الأضواء الأمامية بقوة ثم وبشكلٍ صادمٍ ومفاجئ، أسرعت السيارة ووهج الضوء لمع في عيني المحققة وأربكها. المسافة كانت قريبةً لا تتجاوز بعض الأمتار، ورغم أنها حاولت الركض إلا أنها ومن هول الصدمة لم تلحق، ثم ضربة عنيفة اجتاحت جسدها وعم الهدوء بعدها، وجاء الظلام ليحل على وعيها الذي انفصل عن الواقع.

ART_OF_BOOK

سقطت منى على الرصيف، معطفها الأسود تلطخ برطوبة الشارع وأوساخه، أما هاتفها فقد تدحرج بعيداً، والدم بدأ يسيل عبر شق في رأسها الذي ارتطم بقوة بجدار المنزل المقابل، دون أن يجرؤ أحدٌ على الخروج وتقصي الحادث.

***

لن تمضيَ هذه الليلة بسلام، هكذا شعرت الممرضة التي فتحت البَاب الخارجي ببطء وهي تدفع كرسي الرجل بصعوبة عبر العتبة. لقد قررت إنقاذ ما يمكن وإبعاد الرجل عما يخشى أن يواجهه، لكنه لم يعد صامتاً، ربما لم يكن هكذا منذ البداية، رغم أن تصرفاته كانت مشبوهة بعض الشيء. سارت الممرضة بخطوات متوترة، تنظر حولها في كل لحظة، تستعجل بأخذه وتخشى وصول ابنته. ثم لم تكد تصل إلى منتصف الرصيف حتى توقفت سيارة بيضاء قبالتها، لم يكن من الممكن تمييز سائقها من خلال الزجاج المعتم، لكن بانت ملامحه ما أن نزل وفتح الباب الخلفي وساعد الممرضة في وضع السيد فواز. ثم صعدت قربه، قبل أن تنطلق السيارة بسرعة كبيرة.

***

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

في الجانب الآخر من المدينة، كانت السيارة السوداء قبالة مبنىً يبدو أقرب لمستشفى النور القديم، بيد أن الظلام كثيف، ولا معالم واضحة للمكان، لا أصوات سوى وقع خطواتٍ ثقيلةٍ تنقر أرضية إسمنتية رطبة تشبه حفر طلاسم قديمة. شخص ما يمشي ويتجول داخل الغرفة لكن دون أن يظهر وجهه، أو يداه. ظله وحده من كان يعبث بالجدران وينقل صورته.

الغرفة التي بالكاد يُرى ما بداخلها، يتدلى في منتصفها مصباح ذو إضاءة صفراء ضعيفة، يُصدر طنيناً خافتاً، والنور الساقط عبره يرسم دائرة ضوء فوق الطاولة الحديدية الباردة، إنها تشبه طاولات تجهيز الجثث في المستشفيات القديمة. وفوقها يوجد جسد وضع عليه غطاء أبيض، يدثره من الرأس حتى القدمين، مع بقعة حمراء كبيرة نزفت من جهة الرأس. إنه هامد بلا حركة.

***

جلب دوي الارتطام العنيف، سيارة دورية شرطية لتفقد ما حدث وأضواؤها الزرقاء والحمراء تلون الطريق، لقد كسرت هدوء الليل، خاصةً بعد ما خرج شرطي منها لتفحص الشارع بحذر وهو يشهر سلاحه أمامه خوفاً من أن يصادف القاتل، إلى أن وقعت عينا

ART_OF_BOOK

أحد الرجال على بقايا حطام من مصباح مركبة، ثم لمح على الأرض، بقعة دمٍ صغيرة لا تزال حديثة، وعلى مسافة أمتار قليلة، وجد الآخر الهاتف المحمول مرميّاً قرب الرصيف، يبدو وكأنه سقط أثناء محاولة هروب أو صراع.

التقطه الشرطي، ثم ضغط زر التشغيل، ظهرت الشاشة وعليها رمز الدخول مع بعض الإشعارات. ثم ظهرت صورة الشخص في الخلفية.

- إنه يخص المحققة منى!

قالها بصوت صاخب، ليرسل على الفور بلاغاً عاجلاً عبر اللاسلكي، ويعم التوتر في مركز الشرطة، تم تعميم الخبر وإرسال دوريات أخرى للمكان على وجه السرعة. اجتمع المحققون، وعناصر الدوريات البقية في المركز، والعيون تتجه نحو العقيد أحمد، الذي ظل مناوباً هذه الليلة.

- أرسلوا دورية إلى منزلها فوراً، وبأقصى سرعة!

تطوع زياد للمهمة على الفور ورافقه شرطي آخر، بينما كان المقدم في جانب آخر من المدينة، حيث استيقظ مذعوراً على أثر البلاغ الواصل.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

لم تمضِ دقائق حتى كان زياد أمام منزلها، حيث نزل مع مرافقه وهما يحملان السلاح تحسباً لأي طارئ، المنزل بدا هادئاً، لا إنارة من النوافذ، ولا حركة خلف الزجاج. ثم تقدم وطرق الباب مراراً دون أي استجابة. مما دفعهما لكسر قفل الباب والولوج للتحقق، وما أن أصبحا في الداخل حتى انطلق زياد باحثاً في جميع أروقة المنزل دون أن يجد أثراً للمحققة.

***

في الناحية الأخرى كما يبدو من المدينة وبعد مسير أكثر من ربع ساعة بالسيارة، توقف السائق أخيراً أمام منزل صغير، حيث نزلت الممرضة في البداية، ثم فتحت الباب الخلفي للكرسي المتحرك. بينما انطلق الشاب الذي ظهر أنه شقيقها لمساعدتها بدفع الكرسي إلى البيت الذي يبدو مظلماً من الخارج ويبعث الكآبة.

- كل شيء بخير، لا تقلق.

قالت الممرضة وهي تربت على كتف العجوز برقة، وتصل به أخيراً إلى الشقة الصغيرة.

***

ART_OF_BOOK

تدار رحى الموت في تلك الغرفة المغلقة، يسمع هدير الأنفاس المتقطعة حيث توقف الزمن وهيمن الصمت قبل أن يعود ويكسره صوت أدوات جراحية تحتك بعضها ببعض استعداداً للطقس الدموي. يد أحدهم تمسك مشرطاً طويلاً وتمرره بخفة على سطح الطاولة الحديدية، ثم ترفعه كمن يتفحص لمعانه في الضوء المتدلّي، أو يتقصد إثارة مشهد الرعب المفتعل، بينما ما زال الجسد المغطى لا يتحرك، لكنه وكما يبدو يتحضر ليكون قرباناً لطقس هذا المجنون الذي يعتلي منبر الموت. يمكن رؤية صورٍ عديدةٍ معلقةٍ كأضحية على الجدار المقابل، صور لأطفال مثبتةٍ بمسامير ومتشابكة في ما بينها بخيوطٍ رفيعة، وكل واحدة منها تحتوي ذاك الوجه الصغير، مع عينين ممسوحَتَين، وملامح مطموسة بشكل متقصد.

تُركت الصور لتمثل الوحشية التي تم افتعالها بحق هذه الأجساد البريئة. بعدها توقفت اليد قرب رأس الجثة، المشرط في اليد التي تقبض عليه بقوة، اللمبة المعلّقة تتمايل قليلاً، الهواء هنا هو عبارة عن أنفاس الهلع الخام وهي تدور وسط الجدران المعشقة بصفحات مجزرة لا رأفة فيها. ثم وبهدوء مريب، أمسك الرجل المجهول الواقف بطرفِ الغطاء الأبيض، ثم سحبه بخفة ليكشف عن قطعته البشرية المختطفة.

عيناها مغلقتان، الفم مكمم بشريط أسود، دماءٌ جافة متيبّسة على جانب الجبهة، والجسد مقيدٌ بإحكام عبر أحزمة جلدية إلى سطح الطاولة المجهزة ببعض الأسياخ الصغيرة المعقوفة، والأيدي والأرجل محاصَرة بالأربطة ذواتها، لكنْ هناك روح فيها، رغم الأنفاس الهزيلة التي تتردد من صدرها.

إنها منى. المصباح الخافت فوقها بالكاد أظهر ملامحها، لكن الرجل الذي أراد أن يسدل الستار على الوحش الواقف الذي يأسرها تقدّم بخطاً بطيئة نحو الزاوية، التقط كشافاً يدويّاً صغيراً، ثم عاد بخطواته الرتيبة ووجهه ظلّ في العتمة، ثم وجّه الضوء مباشرة نحو جسد المحققة الفاقدة للوعي.

***

وبعيداً عن هذا السكون المشؤوم، حين أنهى زياد تفتيش كل زاوية في منزل منى. وشاهد غرفتها التي تعمّها الفوضى، والصندوق المحطم ملقىً على الأرض، وحوله بقايا الأخشاب والأدوات مبعثرة بشكل هستيري. بدأ البحث داخل أدراجها وخزانتها على أمل أن يجد دليلاً يقوده إليها، لكن لم يجد سوى دفتر الملاحظات الخاص بوالدتها، حيث حمله وبدأ القراءة وهو يمسك جهاز الاتصال اللاسلكي ويخبر العقيد بما توصل إليه.

- وجدنا آثار عنف خفيفة في غرفتها، كأنها محاولة سرقة!

قال وصفارات الإنذار تعلو حوله في الخارج، وفي كافة أنحاء المدينة، إنها ليلة حاسمة، أضاءت شوارعها مصابيح سيارات الشرطة التي خففت وقع الظلام وهي تشق الطرقات المعتمة، والأوامر تنهال، القوات تتحرك في كل اتجاه والخوف يتصاعد.

***

التوتر يحك جلد المدينة كاملةً، بينما تغرق منى في هدوء تام. أخرج الشبح الذي بدأت تتوضح معالمه علبةَ دواء وبدأ يهزها تاركاً الحبوب ترتطم بعضها ببعض، مثل منبه يحاول عبره إيقاظ المحققة المدمنة.

- حان وقت استيقاظك يا حلوة!

الصوت الأجش المألوف أكمل الصورة، إنه سيف بالتأكيد. أما منى فقد بدأت تتحرك. الألم يفتك بجسدها، ورأسها يدور مثل كوكب خرج عن مداره. جربت فتح مقلتيها لكن الظلال المزعجة التي تتراقص فوقها أجبرتها على إغلاقها جفنيها مجدداً، لكنها عرفت الصوت، لذا أعادت المحاولة تتحمل مشقة الألم لترى سيف واقفاً فوقها، نصف وجهه في النور، ونصفه الآخر غارق في الظلام، رسم

ART_OF_BOOK

ابتسامة دنيئة، استغربت تصرفه حيث توسعت حدقاتها في إشارة له لإزالة الشريط عن فمها وتركها تتحدث.

***

البرد يتسلل إلى العظام، وزياد يجوب الشوارع في سيارته، عيناه تلاحقان الطريق، وعقله غارق بشبكة معقدةٍ من الأفكار، إن اختفاء المحققة رفقة والدها لغز لا يمكن تفسيره. وبدأت أسئلةٌ عديدةٌ تراوده وهو يحاول استيعاب ما يحدث.

- «هل رحلت منى مع والدها خارج المدينة؟ لكن من افتعل الحادث حيث وجدت بقعة الدماء قرب هاتفها؟ لا سبب واضحاً لتزوّر هروبها بهذا الأسلوب، أو ربما كان سيف على علاقة بكل ما يحدث...»

فكر كثيراً ثم ضغط على زر الاتصال في جهازه اللاسلكي، مخاطباً العقيد أحمد الذي لا يزال على أعصابه:

- سيدي، عندي شك بأحدهم!

- بمن تفكر؟

أخبره عن سيف الذي ظهر فجأة في حياة المحققة وأصبح مقرباً

منها بشكل غريب وقد ادعى أنه يعمل في دار صحافة متعلقة بالحوادث.

- هل تعلم أين مكانه؟

- للأسف لا.

تمالك أعصابه العقيد وهو يضطر للتعامل مع حفنة من عديمي المسؤولية، ثم أنهى الاتصال وطلب تعميم صورة الرجل المقصود على جميع الدوريات بعد العودة إلى تسجيلات كاميرات المركز، لم تمضِ دقائق حتى تمت طباعة صورة سيف وأرسلت إلى أفراد الشرطة المنتشرين في المدينة، لكن هناك مشكلة لا يمكن تجاوزها في هذه المدينة المنكوبة والتي تكمن في الخراب الذي يحل بها، حيث إن أغلب الكاميرات في الشوارع معطلة. الإنارة في الشوارع قليلة فأحياء عدة لا تصل إليها الكهرباء بعد أن تم عزلها وتجهيزها لمسحها وإنشاء أماكن سكنية جديدة في مكانها.

***

غدت جميع الاحتمالات مطروحة الآن، وهنا في شقة الممرضة يتكئ والد منى على يد هذه الشابة الرقيقة، يتحسس فيها الأمان، رغم أنها تشعر بالقلق، لكنها تريد أن تبدو قوية أمامه، لقد تركته

لدقائق لتعد له الشاي، حيث ظل رفقة شقيقها وبقية أفراد أسرتها الذين صحوا على ضجيج دخولهم المنزل، وعادت بعدها حاملة فنجاناً ساخناً أخذ يرتشفه بتوتر ويبلع ريقه.

- ليست... هي... منى تخيفني!

لفظ كلماته المتكسرة وهو يجرب التعبير عن مخاوفه تجاه ابنته، وسط استغراب من الناس المجتمعين حوله، لذا أوقفته الممرضة عن الحديث لتباشر الشرح لهم بعد أن أثقل كاهله الكلام وارتفعت ضربات قلبه وهو يجرب تفسير مقصده.

***

إبان سقوطها تذكرت منى السيارة السوداء، تلك التي جاء بها فعلاً سيف لكن لم يبادر إلى ذهنها أن يكون هو الوجه الآخر للشر، فكرت بينما لا تزال مقيّدة فوق الطاولة المعدنية الباردة. وجهها شاحب، تتسلل الدماء من جبينها بخطٍّ مائل، ترسم على عنقها خريطة نجاةٍ لم تكتمل. وسيف الواقف كجلادٍ بجانبها يعتريه هدوء غريب، اقترب منها ثم أمسك طرف الشريط الأسود الذي كان يكمم صوتها.

- سأزيله، لكن فقط إذا وعدتِ بالبقاء هادئة.

أومأت برأسها بحركةٍ واهنة، أقرب لرجفة استسلام، لا لاقتناع، وبالفعل أزاله وهو ينتظر منها أن تظهر ردة فعل غبية تجبره على إعادة تكميمها وإخراسها، لكنها لم تقل شيئاً بل كانت تحدق به مباشرةً في إشارة تحدٍّ غريبة.

- ستورّط نفسك. هل نسيت أنني محققة؟

قالت ثم فاجأها بعد أن انفجر ضاحكاً بطريقةٍ ساخرة.

- أعرف من أنتِ، ولهذا أنا هنا.

كان رده استفزازيّاً، حيث مدّ يده بعدها إلى جيب معطفه وأخرج مجموعة صور صغيرةٍ مطوية بعناية، ووضعها فوق صدرها.

- كنت أراقبك منذ وقت طويل.

لم تعلم ماهية الصور، لكنه استمر بحديثه وهو يعيد شريط ذاكرتها الممزق للخلف.

- كنت أبحث عن الحقيقة، عن قاتلة أبي.

تجمدت أنفاس منى كأنها تنتظر منه إعلاناً مريباً.

- والدك؟!

- نعم، أنا ابن الدكتور ممدوح.

لم يكد ينهي اعترافه حتى أصيبت بالاختناق، لم يعد الهواء كافياً. كانت الحقيقة أبشع مما تتصور، كان ابن القاتل غريمها قربها طوال

ART_OF_BOOK

الوقت ولم تستطع القصاص منه. حاولت النهوض والإفلات من الأحزمة لكنها لم تتمكن من المقاومة.

- والدك هو الذي حوّل حياتي إلى كابوس!

صاحت بقوة وهي تخبره بحقيقته، مع سيل هائل من الشتائم والغضب الذي انفجر داخلها. أما سيف فلم يقتنع بكلماتها بل ظن أنها تحاول تبرئة أمها وإظهار والده بأنه الوحش.

- لقد تتبعت صورة أمك حتى وصلت أخيراً لهذه المدينة الحقيرة.

لكن بعد أن علمت بأنها انتحرت حاولت العودة والابتعاد، إلى أن بدت لي تصرفاتك مشبوهة مثلها.

- ما قصدك؟!

- أنتِ كاذبة. قاتلة!

اكتفى بهذا القول، دون أن يشرح السبب بينما بدأ الغضب يتسلل إلى جسده هو الآخر. لم يرد أن يسمع منها أي كلمات أخرى لذا اقترب مجدداً ووضع الشريط على فمها. لقد رأى الآن في وجهها امتداداً لنسل الموت الذي لا يمكن له البقاء على قيد الحياة بعد الآن.

- لن أذهب إلى الشرطة.....

أنا سأُصدر حكم العدالة بنفسي!

@ART_OF_BOOK

أرادت الصراخ بشتى الوسائل لكن اللاصق منعها، فجربت أن تعضه أو تفتته وعيناها تتقدان بجحيمٍ مرعب من النار والجنون، الجدران حجبت كل شيء عن الخارج، وسيف أمامها يتجهز وهو يلعب بالمشرط لإخافتها واستفزازها بشكل أكبر، بينما كان المشهد بالنسبة لمنى يعكس داخلها مشاعر أخرى، مشاعر أقرب للإثارة وهي تتخيل سيف مسجّىً ومذبوح الصدر مصلوب النظرات على الطاولة ذاتها التي قُيّدت فوقها.

ثم باشر سيف يحمل الصور التي التقطها ويمررها قبالتها ثم يسقطها واحدة تلو الأخرى، لقد قام بمراقبتها منذ فترة طويلة، أعادت اللقطات شريط ذاكرتها على الفور، الصورة الأولى كانت تظهر منى فيها بجانب جثة فتاة صغيرة، في هذه الغرفة ذاتها، عيون الطفلة منتزعة وقد تمت تعريتها بالكامل لتشريح جسدها. الصورة التالية كانت تقضم بها قطعة من لحم الصغيرة مثل مفترس بري بعد أن أعادت خياطة الثقوب في اللحم الطري.

الصورة اللاحقة حملت رسم دوائر سوداء على يد فتاة أخرى.

إنها دوائر الألم، التي ظلت ترسمها على الجثث والتي تعبر عن

«موت والدتها، اختطاف شقيقها، والاعتراف الأخير في دفتر الملاحظات»

ART_OF_BOOK

في تقليدٍ واضح لأفعال أمها السابقة التي كانت تنقش على يدها دائرة كبيرة تعبر عن فقدانها لشقيقها التوءم.

- نسيت أن أخبرك بأنني كنت أتلاعب بكِ، وأبدل أدويتك، أردت أن أظهر لكِ حقيقتك التي تصرين على إخفائها ببضع حبوب مهدئة!

فقدت صوابها عند الاستماع لكلماته الحاقدة، وهي تتذكر تلك الأوهام والصور والكوابيس التي اقتحمت حياتها بشكل أكبر، بينما تابع سيف الاعتراف:

- ظننتِ أنك تطاردين القاتل؟! لا يا عزيزتي. أنتِ القاتلة!

استمر بإغاظتها وهو يعلم أن نهايتها اقتربت بالفعل، وقد رسم في ذهنه فعلاً طريقة ذبحه لعنقها ثم حرقها والمغادرة بعيداً، لكن قبل أن يقترب دوى صوت صفارات الشرطة في الخارج، مما جعله يتراجع بعض الخطوات ويلتفت عبر الرواق المظلم دون أن يجد أحداً، لكن قبل أن يلتف عائداً تحسس فعلاً خطوات ثقيلة لأحد ما قادم، سيكشف أمره ويمنع من انتقامه، لذا رجع مسرعاً نحو المحققة يريد وضع لمسته ومهر جسدها بخَتم يده القاتلة، لكن قوةً ما أيقظت الرعب في قلبه وأجبرته على إطفاء الأضواء والاختفاء خلف الباب على أمل أن يمر الخطر القادم بسلام.

اقتربت الخطوات، كانت بطيئة وثابتة، وجعلت كيانه يرتجف حتى من خلف باب، والرائحة الغريبة التي وصلت مع الكيان المريب أجفلته وجعلت قلبه يرشق فزعاً لسبب يجهله، رغم محاولته الحثيثة للتماسك والانقضاض على الشخص القادم بكامل قوته، ابتلع ريقه والتقط أنفاسه ربما للمرة الأخيرة وتهيأ للمتسلل القريب حيث رفع مشرطه في الهواء، ثم توقف. تجمدت أطرافه، وفقد السيطرة على كامل جسده، وكأن لعنةً ما أوقفت الزمن داخله، حينما رأى الباب يُفتح ببطء، وولج عبره ضوء خفيف من الخارج زحف إلى المكان حيث راحت تتراقص الظلال على الجدران المتسخة، وتظهر كافة الصور المعلقة للضحايا، قبل أن يلتف الغريب بسرعة ويشنق سيف من قبة معطفه ويجذبه باتجاه منى مثل قطعة قماش بالية رغم ضخامة جسده، لقد كان هشّاً، هشّاً للغاية أمام هذا القادم من العدم.

وقف الغريب أمام المحققة وقد أنار الغرفة بالكشاف الصغير. ملامحه قوية وصارمة لا أحد يعرفه، له طبيعة مغايرة للبشر، رغم شبهه الواضح، إن صفاته الجسدية وقوته تحمل غموضاً هائلاً، كأنه قادمٌ من عالمٍ آخر. بشرته صافيةٌ مصقولةٌ كالرخام، عيناه واسعتان ومخيفتان، ودون أن يفتح فمه. انتشل المشرط من يد سيف الذي شُل

جسده تماماً وخضع لقوة الرجل الغامض، ثم قطع الأربطة التي كانت تقيد منى.

ثم ابتعد، وقف بعيداً وهو ينظر إليها. الأخيرة التي نهضت ببطء، وخطت مباشرةً إلى حيث يقف سيف وهي تحمل عن رفٍّ صغير بعض الأدوات الجراحية. نظر إليها وهي تبتسم بينما ترمقه بنظرات قاتلة، نظرات وحش ولد من رحم الغضب والعنف، ثم غرست السكاكين المختلفة الأحجام في حلقه. في عينه. قشطت خدّه، قبل أن تغرزها في جمجمته، وسيف الذي ظل ساكناً وعاجزاً، لم يصدر منه سوى صوت غرغرة مكتومة والدم يخرج منه، فيسقط على الأرض، ويلتصق لحم وجهه المتفتت بالأرض الباردة، واختلط بدماء الأطفال. جسده انتفض عدة مراتٍ وهو ينازع الموت، قبل أن يرتفع للمرة الأخيرة ثم ينتهي جثةً هامدة ويغدو وليمة للدود الذي انتظر كثيراً وجبته الدسمة.

غمر منى ارتياحٌ شديد وهي تتنفس وتشاهد سيف الممرغ بدمائه، ثم أسقطت الأدوات الجراحية من يدها، كان عليها بقايا لحمه وشعره، ثم استدارت بحذرٍ نحو الغريب الذي تفوح منه رويداً رائحة الصحراء ورويداً رائحة البحر. نظرت في عينيه وقد غمرها شعورٌ مفعمٌ بطمأنينة لا تعلم سببها، لكنه جاء لينقذها بالتأكيد.

- اسمي خالد. ما فعلتهِ أنتِ الآن، لم يكن انتقاماً، بل كان ولادة.

قال ثم سكت قليلاً ومنى تفكر بكلماته. وأكمل بصوتٍ أشبه بالريح:

- أنتِ الآن جاهزة. القوة التي تغمرك تدعى سيكوفي. إنها قوة لا تُقارن. شفاء لكل آلامك، وعصر جديد ستكونين ذات شأنٍ أعظم فيه.

اقترب منها خطوة فلم تبتعد. لم تسأل.

- لقد وصلتِ للنقطة التي يتوق لها الجميع، حيث لا عودة، والوقت حان للمغادرة، وجميع كوابيسك التي كنت حاضراً بها، كانت اختباراً لكِ، إما أن تعودي لجحيم حياتك السابقة وتقبلي بحقيقة الوحش الكامن داخلك، أو تتبعي خطاي نحو العظمة.

أنهى حديثه ثم أدار وجهه، خطا نحو الباب، أما منى التي فهمت ما حصل لها، ففكرت مليّاً بالعرض السخي الذي قدمه الغريب، الذي استشعرت فيه ثقة مطلقة، وحياةً جديدةً كليّاً، لم تفكر بوالدها ولا بأي ذكرى تقيدها بالمنزل الذي جلب لها كل تلك المآسي والخداع، لذا بدأت قدماها تتجهان صوبه، لحقت به دون أن تنطق بكلمة. الدم يسيل من جرح يدها ووجهها دون أي

ART_OF_BOOK

ألم. تركت الباب مفتوحاً خلفها بينما انطفأ الضوء وحده واحترق وسقطت بعض نثراته فوق معطف سيف وأشعل جسده الذي صار يمتلئ بالفقاعات والتشوه يخط شكل جلده إلى أن غدا كتلة ذائبة من اللحم والرعب، بينما أكدت الصور المتساقطة فوقه أنها ستغدو ملامح الأيام القادمة في عصر منى وخالد الجديد، في فصل آخر من الموت الذي لن يتوقف حتى يلفظ البشر، جميع البشر صغيرهم وكبيرهم أنفاسهم الأخيرة.

@ART_OF_BOOK

بعض الأسماء لا تُنطق كي تُعرَف، بل كي تُفتَح بها أبواب الخراب

ART_OF_BOOK

كان الضوء الأصفر الشاحب يتسلل من بين ثقوب الجدران المتآكلة، حيث وقفتُ، على مبعدة خطوة واحدة من خالد، أرقب ارتجاف أصابعه كأنها يحاول طرد شبحٍ لا يرحل.

همس، وصوته يشبه رفيف ورقة مُحترقة:

- «يجب أن ينتهي كل شيء...»

تقدمت خطوة. شعرت بالأرض تهتز تحت قدميّ، وكأنها تتنصل مني.

- «عن أي شيء تتحدث؟»

كان سؤالي أقرب إلى حشرجة من الرجاء.

رفع رأسه ببطء، ببطء مميت، وعيناه تسبحان في ظلال لم أكن أراها.

- «أسامة... ويزن.»

نطق الأسماء كما لو كان يتقيؤها من جوف روحه.

- «يجب القضاء عليهما... قبل أن يكملا ما بدأاه».

تجمدت الكلمات بين شفتي.

أسامة... يزن... أسماء تطفو بلا ذاكرة.

-ز «من هما...؟»

قلتُ، والكلمات تتعثر فوق لساني وكأنها حبات زجاج مكسور.

ابتسم خالد... ابتسامة خالية من الضوء.

- «أشباح قديمة... أخطاء لم تُدفن، فقط أُخفيت تحت جلد المدينة».

اقتربتُ أكثر. الهواء بيننا صار ثقيلاً، لزجاً كدمٍ متخثر.

همست، كمن يسأل جداراً لا يرد:

- «وماذا عني؟»

ضربت الريح نافذةً مكسورة في الجهة الأخرى من الغرفة

أدار وجهه عني.

ارتجف كتفه، كأنما كان يحاول حبس اسم آخر، خوف آخر.

قالها بصوت مبحوح، تمسحه الريح قبل أن يبلغني:

- «أنتِ...»

- «أنتِ مجرد بداية. ليست النهاية».

ART_OF_BOOK